كتب الفراشة - القِصَص العالميّة

عَوْدَةُ المُواطِن



كتب الفراشة - القِصص العالميّة

عَوْدَةُ المُواطِنِ



تأليف : توماس هاردي
ترجمة : محمّد حِلمي محمُود
مُراجعة : وَجْدي رزق غالي

مكتبة لبنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الكتاب 01 C 196811

طبع في لبنان



مقدّمة

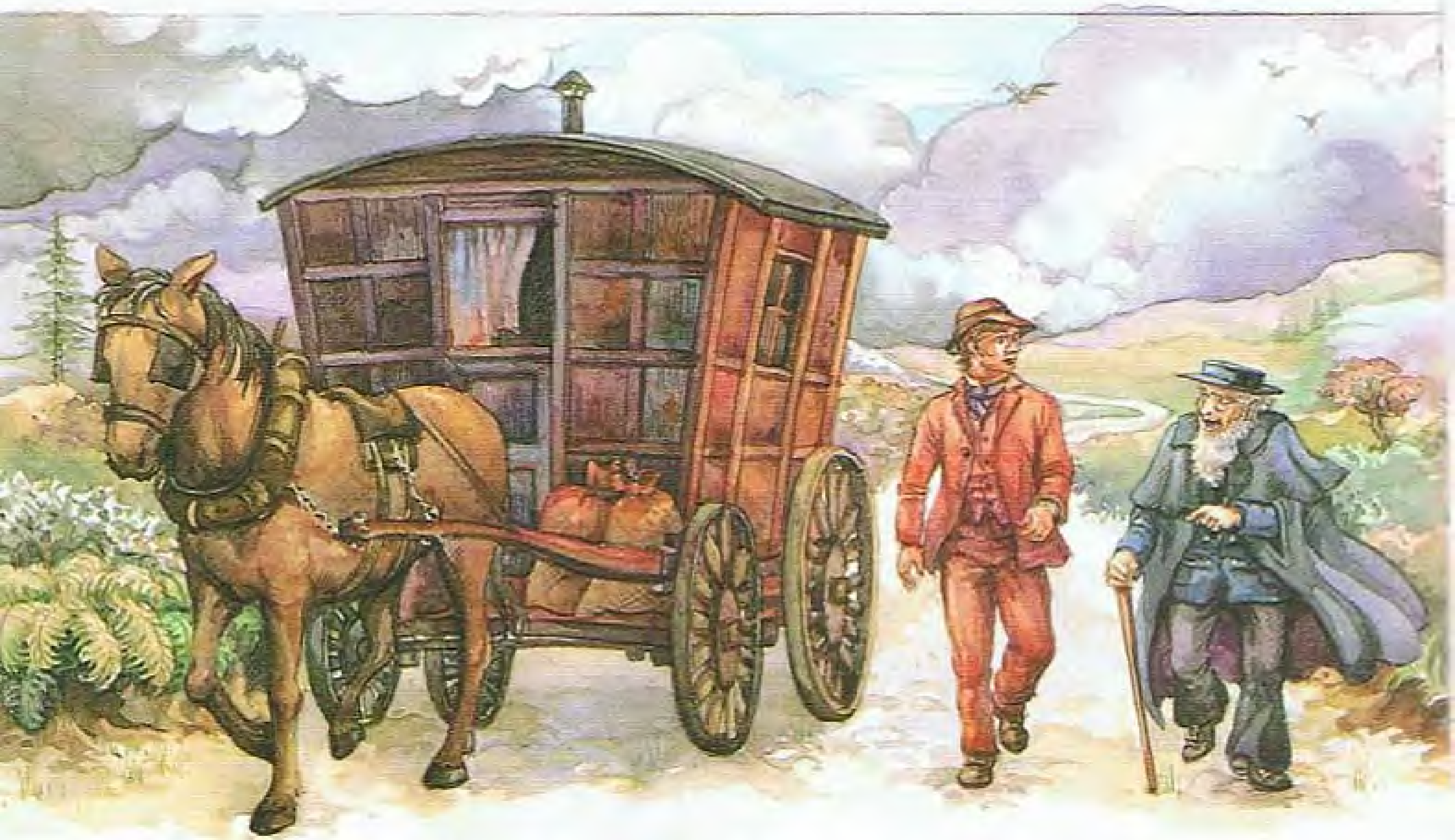
ظَهَرَتْ رِوايَةُ توماس هاردي «عَوْدَةَ المُواطِنِ» [The Return of the Native] في اثْنَتَيْ عَشْرَةَ حَلْقَةً في «مَجَلَّة بلْغرافيا» سَنَةَ ١٨٧٨، ثُمَّ نُشِرَتْ في كِتابٍ واحِدٍ في العامِ نَفْسِهِ. وهِيَ واحِدَةٌ مِنْ بَواكيرِ رِواياتِهِ الَّتي لاقَتِ اسْتِحْسانًا لَدى النُّقّادِ ورَواجًا لَدى الجُمْهورِ.

يَعودُ الفَضْلُ في نَجاحِ هٰذِهِ الرِّوايَةِ إلى مَتانَةِ الحَبْكَةِ في قِصَّةِ الحُبِّ الَّتي تُعالِجُها. وقَدْ كانَ هاردي مُولَعًا بِفِكْرَةِ حُبِّ رَجُلَيْنِ لِامْرَأَةٍ واحِدَةٍ تَقَعُ في حَيْرَةِ الاخْتِيارِ بَيْنَهُما. فَهُوَ هُنا يَرْسُمُ، بِدِقَّةٍ نابِضَةٍ، شَخْصِيَّةَ الفَتاةِ الجَميلَةِ يوسْتاسْيا ڤاي الَّتي يَقودُها حُبُّ المُغامَرَةِ والإثارَةِ إلى الزَّواجِ مِنْ رَجُلٍ بِالرَّغْمِ مِنْ حُبِّها لِرَجُلٍ آخَرَ. ويُظْهِرُ لَنا هاردي كَيْفَ أَنَّ تَرَدُّدَ يوسْتاسْيا واخْتِيارَها الخاطِئَ سَبَّبا سِلْسِلَةً طَويلَةً مِنَ التَّعْقيداتِ والآثارِ السَّلْبِيَّةِ عَلى مَجْرى حَياةِ العَديدِ مِنَ الأَشْخاصِ الَّذينَ تَحَكَّمَتْ بِهِمْ شَبَكَةٌ مُعَقَّدَةٌ مِنَ العَلاقاتِ المُشَوَّشَةِ والأَهْواءِ المُتَضارِبَةِ.

لَمْ يَهْتَمَّ هاردي بِالنّاسِ فَحَسْبُ، وإنَّما بِالبيئَةِ الَّتي يَعيشونَ فيها أَيْضًا. فَقَرْيَةُ «إغدون هيث» – مَسْرَحُ الأَحْداثِ – تَقَعُ في مُقاطَعَةِ «دورْسِت» الرّيفِيَّةِ حَيْثُ نَشَأَ هاردي، ولِذٰلِكَ وَصَفَها بِالتَّفْصيلِ في كِتابِهِ. وهُوَ يُشيرُ إلى مَدى تَأْثيرِ هٰذِهِ البيئَةِ في رَسْمِ شَخْصِيّاتِ النّاسِ وأَعْمالِهِمْ. ويُشَدِّدُ عَلى أَنَّ النّاسَ يَتَنَقَّلونَ ويَتَغَيَّرونَ أَمّا المِنْطَقَةُ فَتَظَلُّ ثابِتَةً. إنَّنا، في الواقِعِ، نَلْمُسُ أَنَّ في «إغدون هيث» نَمَطَ حَياةٍ تَقْليدِيًّا راسِخًا لا يَتَبَدَّلُ مَهْما حاوَلَ كليم يوبرايت تَغْييرَهُ أَوْ مَهْما حاوَلَتْ يوسْتاسْيا مُقاوَمَتَهُ وتَجَنُّبَهُ.

وَتَبْرُزُ، في الرِّوايَةِ، فِكْرَةُ هاردي الرَّئيسِيَّةُ، وهِيَ أَنَّ لِلبيئَةِ الرِّيفِيَّةِ تَأْثيرًا عَميقًا عَلى سَعادَةِ الأَفْرادِ. فَيوسْتاسْيا ڤاي لَنْ تَعْرِفَ الرِّضا أَبَدًا في «إغدون هيث» لِأَنَّها تَكْرَهُ قَساوَةَ تِلْكَ القَرْيَةِ وكَآبَتَها، وتَتوقُ إلى بَهْجَةِ حَياةِ باريس وإشْراقِها. أَمّا كليم يوبرايت، الَّذي وُلِدَ في القَرْيَةِ، فَإِنَّهُ ظَلَّ -في غُرْبَتِهِ- دائِمَ الحَنينِ إلَيْها لِاقْتِناعِهِ بِأَنَّهُ لَنْ يَذوقَ طَعْمَ السَّعادَةِ خارِجَ مَوْطِنِهِ. والانْطِباعُ الَّذي يُريدُنا هاردي أَنْ نَخْرُجَ بِهِ هُوَ أَنَّ المَرْءَ لا يُحَقِّقُ سَعادَتَهُ إلّا إذا كانَ مُنْسَجِمًا مَعَ نَفْسِهِ ومَعَ مُحيطِهِ.





كانَ اللَّيْلُ يُرْخي سُدولَهُ عَلى إغدون هيث في يَوْمٍ غائِمٍ مِنْ أَيّامِ شَهْرِ نوفمبر، وَقَدْ لاحَ المَكانُ وَكَأَنَّهُ يَزْفِرُ مِنْ جَوْفِهِ الوَحْشَةَ وَالظَّلامَ موحِيًا بِنُزولِ فاجِعَةٍ.

وَعَلى الطَّريقِ كانَ يَمْشي عَجوزٌ أَشْيَبُ الشَّعْرِ مُحْدَوْدِبُ الظَّهْرِ، وَقَدْ دَسَّ نَفْسَهُ في زِيِّ ضابِطٍ بَحْرِيٍّ. وَلَمَحَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَرَبَةً يَجُرُّها حِصانٌ وَهِيَ مِثْلُ كُلِّ العَرَباتِ شَكْلًا إلّا في لَوْنِها الأَحْمَرِ المُتَمَيِّزِ، الَّذي كانَ هُوَ لَوْنَ ثِيابِ الحوذِيِّ الَّذي يَقودُ تِلْكَ العَرَبَةَ. وَكانَ اسْمُهُ ديغوري فين، الصَّبّاغَ، وَكانَ يَضْرِبُ في الأَرْضِ العَريضَةِ فَيَبيعُ صِبْغَةً كَلَوْنِ التُّرابِ الأَحْمَرِ تُسْتَعْمَلُ في تَمْييزِ الماشِيَةِ.

وَتَبادَلَ العَجوزُ وَالصَّبّاغُ عِباراتِ التَّحِيَّةِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ العَجوزُ وَنَظَرَ داخِلَ العَرَبَةِ، وَسَأَلَ الحوذِيَّ: «أَفي العَرَبَةِ شَيْءٌ زائِدٌ عَلى حِمْلِكَ؟»

قالَ الحوذِيُّ: «أَجَلْ! شَخْصٌ ما في مِحْنَةٍ – سَيِّدَةٌ شابَّةٌ الْتَقَطْتُها عِنْدَ مَوْقِفِ أنجلبري. وَلَيْتَها تَظَلُّ غارِقَةً في سُباتِها حَتّى أُبْلِغَها دارَها.» فَقالَ العَجوزُ: «أَلَيْسَتْ هِيَ فَتاةَ بلومز إند الَّتي لا تَزالُ تَلوكُ سيرَتَها الأَلْسُنُ؟» وَأَجابَ الحوذِيُّ: «لا عَلَيْكَ يا سَيِّدي! عَلَيْنا أَنْ نَفْتَرِقَ الآنَ؛ فَإِنّي في حاجَةٍ إلى الرّاحَةِ. طِبْتَ مَساءً!»

تَلَفَّتَ الصَّبّاغُ حَوْلَهُ وَسَرَّحَ الطَّرْفَ في الأَكَمِ الصَّغيرَةِ والوِهادِ والشُّروخِ الَّتي تَصاعَدَتْ لِتَنْتَهِيَ إلى مَدْفَنٍ قَديمٍ تَعالى وَطَغى عَلى المَكانِ. وَإِذْ راحَ يُحَدِّقُ في ذٰلِكَ المَدْفَنِ رَأى في أَعْلاهُ شَخْصًا أَشْبَهَ بِتِمْثالٍ أَوْ حَرْبَةِ خوذَةٍ. تَحَرَّكَ الشَّخْصُ فَجْأَةً وَانْزَلَقَ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَدْفَنِ، كَانْزِلاقِ قَطْرَةِ النَّدى عَلى البُرْعُمِ، وَتَوارى عَنْ ناظِرَيْهِ. وَبَدا واضِحًا مِنْ تَحَرُّكاتِ ذٰلِكَ الشَّخْصِ أَنَّهُ امْرَأَةٌ.

وَما إِنْ غادَرَتِ المَرْأَةُ ذٰلِكَ المَكانَ حَتّى لاحَ نَفَرٌ مِنَ الرِّجالِ وَالفِتْيانِ راحوا يَصْعَدونَ المَدْفَنَ بِمَشَقَّةٍ وَيَتَحَلَّقونَ حَوْلَهُ، حامِلينَ حُزَمًا مِنَ الحَطَبِ كانوا قَدْ جَمَعوها ثُمَّ جَعَلوا مِنْها هَرَمًا عَلى رَأْسِ الأَكَمَةِ. لَقَدْ كانوا يَتَهَيَّأونَ لإِيقادِ نارٍ، إِذْ كانَ ذٰلِكَ أَحَدَ تَقاليدِهِم في رينبارو، يَتَّبِعونَهُ، مُنْذُ أَجْيالٍ عَديدَةٍ، في الخامِسِ مِنْ شَهْرِ نوفَمْبِر مِنْ كُلِّ عامٍ.



وَكانَ مِنْ بَيْنِ موقِدي النّارِ الجَدُّ كانتل ، ذٰلِكَ الشَّيْخُ الَّذي ٱنْطَلَقَ يَرْقُصُ حَوْلَ النّارِ مُتَرَنِّمًا بِبَعْضِ المَواويلِ القَديمَةِ الغَريبَةِ. وَوَقَفَ بِجوارِهِ ٱبْنُهُ كريستيان السّاذَجُ ، الَّذي كانَ يَرْقُبُهُ في إِعْجابٍ وَقَلَقٍ.

وَلَمّا تَوَقَّفَ الشَّيْخُ لِيَسْتَرِدَّ أَنْفاسَهُ ، ٱسْتَدارَ إِلى تيموثي فيرويي قائِلًا : «حَدِّثْني عَنِ العَريسَيْنِ الجَديدَيْنِ في فُنْدُقِ كوايت وومان.»

أَجابَهُ فيرويي : «في بادِئِ الأَمْرِ مَنَعَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت ، ٱمْرَأَةُ عَمِّ الفَتاةِ ، طُقوسَ عَقْدِ الزَّواجِ مِنَ الإِتْمامِ بِأَنْ أَعْلَنَتْ رَفْضَها لِهٰذا الزَّواجِ ، لٰكِنَّها عادَتْ وَعَدَلَتْ عَنْ رَأْيِها في النِّهايَةِ.»

صاحَ الجَدُّ كانتل : «إِذًا أَصْبَحَ دامون ويلديف وَتوماسين يوبرايت آخِرَ الأَمْرِ زَوْجَيْنِ.»

أَجابَ تيموثي : «يَغْلِبُ عَلى الظَّنِّ ، لٰكِنَّ ذٰلِكَ التَّحَوُّلَ كانَ غَريبًا مِنَ السَّيِّدِ ويلديف ؛ إِذْ إِنَّهُ كانَ قَدْ أَعَدَّ نَفْسَهُ لِيَكونَ مُهَنْدِسًا ، أَمّا الآنَ فَهُوَ مالِكٌ لِلْكوايت وومان.»

وَعَقَّبَ الشَّيْخُ : «إِنَّ ذٰلِكَ الزَّواجَ هُوَ الَّذي جاءَ بِكليم يوبرايت مِنْ باريس ، وَإِنَّ حُضورَهُ لَمُنْتَظَرٌ في أَيَّةِ لَحْظَةٍ ، كَما يُشاعُ.»

وَبَيْنَما كانا يَتَجاذَبانِ أَطْرافَ الحَديثِ ، لَمَحا نارًا تَسْطَعُ عَلى بُعْدِ ميلٍ في أَرْضِ مَنْزِلِ الضّابِطِ الشَّيْخِ في ميستوفر. قالَ أَحَدُ القَرَوِيّينَ : «إِنَّ ذٰلِكَ الضّابِطَ غَريبُ الأَطْوارِ ؛ إِذْ كَيْفَ يوقِدُ نارًا في مَكانٍ حَيْثُ لا شَبابَ يَتَمَتَّعونَ وَيَمْرَحونَ ؟»

قالَ فيرويي : «بَلْ إِنَّها حَفيدَتُهُ ، كَما أَعْتَقِدُ ، هِيَ الَّتي أَوْقَدَتِ النّارَ. وَإِنَّها لَفَتاةٌ غَريبَةُ الأَطْوارِ تِلْكَ الَّتي تَعيشُ هُناكَ مَعَ جَدِّها الشَّيْخِ وَحْدَهُما.»

وَإِذْ راحَ القَوْمُ بَعْدَ ذٰلِكَ يَرْقُصونَ وَيَمْرَحونَ حَوْلَ جَذْوَةِ النّارِ الآخِذَةِ في الخُمودِ ، مُصاحَبينَ بِبِضْعِ نِساءٍ مِنَ الفَلّاحاتِ ، شاهَدوا غَريبًا يَدْنو مِنْهُمْ بِعَرَبَتِهِ. وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ الغَريبُ سِوى الصَّبّاغِ - الَّذي تَحَدَّثْنا عَنْهُ آنِفًا - حامِلًا داخِلَ عَرَبَتِهِ ، تِلْكَ المُسافِرَةَ الخَفِيَّةَ الَّتي لَمْ تَزَلْ بِصُحْبَتِهِ.

قالَ الصَّبّاغُ: «طابَتْ أُمْسِيَّتُكُمْ. هَلْ ثَمَّةَ طَريقٌ تَسْلُكُهُ العَرَباتُ إلى دارِ السَّيِّدَةِ يوبرايت؟» فَأَجابَ تيموثي فيرويبي: «أَجَلْ. اِتَّبِعْ هٰذا الطَّريقَ إلى اليَمينِ.»

وَما كادَ الصَّبّاغُ يَتَوارى عَنْ أَنْظارِ القَوْمِ حَتّى دَنا شَبَحُ شَخْصٍ آخَرَ إلى حَيْثُ النّارُ الخابِيَةُ. وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ الشَّبَحُ سِوى الأَرْمَلَةِ المُبَجَّلَةِ الَّتي جاوَزَتْ طَوْرَ الشَّبابِ، السَّيِّدَةِ يوبرايت الَّتي كانَتْ تَقْطُنُ أَحَدَ الأَكْواخِ في بلومز-إند مَعَ ابْنَةِ شَقيقِ زَوْجِها الشّابَّةِ توماسين. وَكانَتْ تَبْدو عَلى تِلْكَ السَّيِّدَةِ المُتَقَدِّمَةِ المُسِنَّةِ أَماراتُ الجَلالِ وَقُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ. وَلا غَرْوَ فَقَدْ كانَتِ ابْنَةَ رَجُلِ دينٍ فَنَشَأَتْ أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ.

صاحَ فيرويبي: «يا لَلْمُصادَفَةِ! إِنَّها السَّيِّدَةُ يوبرايت. سَيِّدَتي، مُنْذُ أَقَلَّ مِنْ عَشْرِ دَقائِقَ كانَ الصَّبّاغُ يَسْأَلُ عَنْكِ!»

«وَماذا كانَ يُريدُ؟»

«لَمْ يَقُلْ لَنا يا سَيِّدَتي، بَيْدَ أَنَّهُ انْطَلَقَ إلى مَنْزِلِكِ. وَإِنّي لَيَسُرُّني أَنْ أَعْلَمَ بِعَوْدَةِ ابْنِكِ كليم إلى أَرْضِ الوَطَنِ.»

قالَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «شُكْرًا لَكَ، يا فيرويبي. مَعْذِرَةً إِذْ لا بُدَّ لي مِنَ المُغادَرَةِ الآنَ، فَإِنّي ذاهِبَةٌ في التَّوِّ إلى بَيْتِ توماسين الجَديدِ، فَإِنَّها عائِدَةٌ اللَّيْلَةَ بِرُفْقَةِ زَوْجِها.»

«طابَتْ لَيْلَتُكِ، يا سَيِّدَتي. وَلَعَلَّكِ تَعْثُرينَ عَلى الصَّبّاغِ في طَريقِكِ.»

وَعِنْدَ سَفْحِ التَّلِّ سَلَكَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت الطَّريقَ المُؤَدِّيَةَ إلى فُنْدُقِ الكوايت وومان، مُعْتَقِدَةً أَنَّ ابْنَةَ أَخي زَوْجِها هُناكَ مَعَ زَوْجِها رامون ويلديف بَعْدَ أَنْ عُقِدَ قِرانُهُما في أنجلبري. وَبَعْدَ قَليلٍ لَمَحَتِ الصَّبّاغَ مُقْتَرِبًا بِمِصْباحِهِ وَهُوَ يَقودُ عَرَبَتَهُ، فَبادَرَها قائِلًا: «إِنَّهُ لَيَحْزُنُني أَنْ أَحْمِلَ إِلَيْكِ أَنْباءً غَيْرَ سارَّةٍ عَنِ الآنِسَةِ توماسين!»

قالَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت في انْزِعاجٍ: «لٰكِنَّها عادَتْ إلى بَيْتِها لِتَوِّها بِرُفْقَةِ زَوْجِها!»

قالَ الصَّبّاغُ: «لَيْسَتْ في الكوايت وومان، يا سَيِّدَتي. لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ أَنْ أَقولَها لَكِ، إِنَّها هُنا في عَرَبَتي!»

صَرَخَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت، وَقَدْ أَخْفَتْ عَيْنَيْها بِكَفَّيْها قائِلَةً: «ماذا حَدَثَ لَها؟»



«لا أَعْرِفُ على وَجْهِ التَّحْقيقِ ، يا سَيِّدَتي ؛ إلّا أَنّني كُنْتُ عَلى الطَّريقِ صَباحَ اليَوْمِ خارِجَ أنجلبري فَهَرْوَلَتْ إِلَيَّ توماسين مُمْتَقِعَةَ اللَّوْنِ وَصَرَخَتْ قائِلَةً : «أَغِثْني يا ديغوري فَبِنْ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ ! إِنَّني في مِحْنَةٍ !» وَما لَبِثَتْ أَنِ انْهارَتْ مَغْشِيًّا عَلَيْها . فَقَرَّرْتُ المَجيءَ بِها إلى المَنْزِلِ .» هُنا نَظَرَتِ السَّيِّدَةُ إلى قَلْبِ العَرَبَةِ فَأَلْفَتْ توماسين نائِمَةً فيها ، وَما تَبَيَّنَتْ مَلامِحَها إلّا في نورِ المِصْباحِ ، حَيْثُ رَأَتْ وَجْهًا حُلْوَ القَسَماتِ تُشِعُّ مِنْه البَراءَةُ ، مُسْتَرْخِيًا في عُشٍّ مِنْ شَعْرٍ مُمَوَّجٍ كَسْتَنائِيِّ اللَّوْنِ ، إلّا أَنَّ القَلَقَ كانَ بادِيًا عَلى ذٰلِكَ المُحَيّا حَتّى في رَقْدَتِهِ . وَما لَبِثَتِ الفَتاةُ أَنْ فَتَحَتْ عَيْنَيْها لِتَشْهَدَ عَلاماتِ الذُّهولِ بادِيَةً في عَيْنَيِ امْرَأَةِ عَمِّها . صَرَخَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت وَهِيَ تَميلُ عَلَيْها لِتُقَبِّلَها : «أَوّاهُ ! توماسين ، توماسين ! أَوّاهُ ! ابْنَتِي العَزيزَةَ ! ماذا جَرى ؟»

فَقالَتِ الفَتاةُ : سَأُخْبِرُكِ بِجَميعِ التَّفاصيلِ ، لٰكِنّي الآنَ أُفَضِّلُ قَطْعَ بَقِيَّةِ المَسافَةِ مَعَكِ سَيْرًا عَلى الأَقْدامِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ بِبَعيدَةٍ .» وَلَمّا كانَتا خارِجَ مَجالِ سَمْعِ الصَّبّاغِ الْتَفَتَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت إلى توماسين وَخاطَبَتْها بِلَهْجَةٍ حادَّةٍ لا تَخْلو مِنْ فَظاظَةٍ : «وَالآنَ ، يا توماسين ، ما مَعْنى هٰذا الشَّيْءِ المُشينِ ؟»

أَمّا توماسين الَّتي قَهَرَها أُسْلوبُ السُّؤالِ فَقَدْ أَجابَتْ: «مَعْناهُ أَنَّني لَمْ أَتَزَوَّجْ، هٰذِهِ هِيَ المَسْأَلَةُ! فَرَجُلُ الدّينِ أَعْلَنَ رَفْضَهُ عَقْدَ قِرانِنا بِسَبَبِ بَعْضِ اللَّوائِحِ البَسيطَةِ.»

«أَيُّ لَوائِحَ؟»

«لا أَدْري، يا عَمَّتي، إِلّا أَنَّ ويلديف يَسْتَطيعُ إيضاحَ كُلِّ شَيْءٍ بِنَفْسِهِ.»

وَخَتَمَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت الحِوارَ بِقَوْلِها: «حَسَنٌ! سَنَذْهَبُ إِلى الفُنْدُقِ اللَّيْلَةَ لِتَلَقّي ذٰلِكَ الإيضاحِ مِنْ ويلديف.» وَفي تِلْكَ الأُمْسِيَةِ أَصَرَّتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت عَلى أَنْ تَصْحَبَها توماسين إِلى فُنْدُقِ كوايت وومان.



وَدَخَلَتِ السَّيِّدَتانِ مِنَ المَمَرِّ وَفَتَحَتا بابَ الرَّدْهَةِ حَيْثُ كانَ ويلديڤ بِالدّاخِلِ. فَنَهَضَ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِما مُلاقِيًا مُرَحِّبًا.

وَقَدْ تَفَرَّدَ ويلديڤ هٰذا بِرَشاقَةٍ ساحِرَةٍ، وَقَدْ هَبَتْ مِنْ أَعْطافِهِ سِماتُ مَعْشوقِ النِّساءِ، فَلِلتَّوِّ يَلْحَظُ النّاظِرُ إِلَيْهِ فَرْوَةً مِنَ الشَّعْرِ الغَزيرِ وَجيدًا أَتْلَعَ أَمْلَسَ مُسْتَديرًا، لٰكِنَّ نِصْفَهُ الأَسْفَلَ كانَ رَشيقًا كَأَجْسامِ الرِّياضِيّينَ. وَسُرْعانَ ما أَقْبَلَ عَلى توماسين يَسْأَلُها: «كَيْفَ غادَرْتِ المَكانَ عَلى هٰذِهِ الصّورَةِ؟» ثُمَّ ٱسْتَدارَ إِلى السَّيِّدَةِ يوبرايت وَأَضافَ قائِلًا: «لَقَدْ كانَتْ كُلُّها مُجَرَّدَ غَلْطَةٍ. إِنَّ التَّصريحَ بِالزَّواجِ لا يَسْري في أَنجلبري بَلْ في بدماوث، وَقَدْ فاتَني أَنْ أَلْحَظَ هٰذا؛ فَالذَّنْبُ ذَنْبي عَنْ تِلْكَ الغَلْطَةِ غَيْرِ المَقْصودَةِ.»

قالَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «وَإِنَّهُ لَعارٌ أَيُّ عارٍ في أُسْرَتي، وَهُوَ ما لا يُمْكِنُ نِسْيانُهُ.»

وَسَأَلَ ويلديڤ السَّيِّدَةَ يوبرايت أَنْ تَتْرُكَهُما لِلَحْظَةٍ.

قالَتْ توماسين مُتَوَسِّلَةً: «هٰذا الأَمْرُ يَقْتُلُني، يا دامون. فَماذا تَرى؟ هَلْ تَنْوي الاقْتِرانَ بي؟»

«بِلا شَكٍّ، يا عَزيزَتي، فَهٰذا أَمْرُهُ سَهْلٌ، فَما عَلَيْنا إِلّا المُضِيُّ إِلى بدماوث يَوْمَ الإِثْنَيْنِ القادِمِ.»

قالَتْ توماسين: «إِنَّني لا يَعْنيني أَنْ يَتِمَّ هٰذا الأَمْرُ؛ فَإِنّي أَسْتَطيعُ العَيْشَ بِدونِكَ، بَلْ إِنَّها ٱمْرَأَةُ عَمّي هِيَ الَّتي أُفَكِّرُ فيها، وَإِنَّها لَمَزْهُوَّةٌ فَخورٌ وَقَدْ حَطَّ هٰذا مِنْ كَرامَتِها، وَهٰذا ما سَوْفَ يَكونُ لَهُ وَقْعُ العاصِفَةِ عَلى ٱبْنِ عَمّي كليم عِنْدَما يَعودُ إِلى أَرْضِ الوَطَنِ!»

صاحَ ويلديڤ فيها: «أَمّا أَنا فَقَدْ وَجَّهَتْ إِلَيَّ السَّيِّدَةُ يوبرايت إِهانَةً بالِغَةً عِنْدَما حالَتْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الزَّواجِ. وَلَوْ كُنْتُ ٱمْرَأً فَظًّا لَنَفَضْتُ يَدي مِنْ هٰذِهِ الزّيجَةِ.»

فَجْأَةً حَدَثَتْ جَلَبَةٌ خارِجَ الفُنْدُقِ؛ إِذِ ٱنْبَعَثَ خَمْسونَ قَرَوِيًّا عَلى الأَقَلِّ وَذٰلِكَ لِيَحْتَفِلوا بِالعَروسَيْنِ حَديثَيِ الزَّواجِ، كَما دارَ في خَلَدِهِمْ.

وَٱنْدَفَعَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت إِلى الغُرْفَةِ وَهِيَ تَصيحُ: «توماسين، توماسين، ها هِيَ ذي فَضيحَةٌ كافِيَةٌ؛ فَلْنَهْرُبْ في الحالِ. هَلُمّي!»

لٰكِنَّ ويلديف صاحَ: «لا! توَقَّفا! إِنّي خارِجٌ إِلَيْهِمْ وَسَأُواجِهُهُمْ! توماسين، يا عَزيزَتي، لا تُقْدِمي عَلى أَيِّ عَمَلٍ يُحْسَبُ عَلَيْكِ. سَوْفَ نَتَزَوَّجُ، صَدِّقيني! وَسَأَذْهَبُ الآنَ إِلى هٰؤُلاءِ الحَمْقى الطّائِشينَ!» لٰكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ، كانَ قَدِ ٱحْتَشَدَ في المَمَرِّ جُمْهورٌ مِنَ المُغَنّينَ مِنْ بَيْنِهِمْ تيموثي فيرويي وَكريستيان كانتل وَسام قاطِعُ الشَّجَرِ.

وَإِذْ تَبَيَّنَ لِويلديف أَنَّ المَوْقِفَ آخِذٌ في التَّفاقُمِ، هُرِعَ فَجاءَ بِإِبْريقٍ مِنَ الجِعَةِ فَقَدَّمَهُ لِلزّائِرينَ. وَأَحْدَثَ هٰذا رَدَّ فِعْلٍ سَريعًا؛ إِذْ سَرْعانَ ما أَحَسّوا بِالنَّشْوَةِ وَالبَهْجَةِ، وَتَمَكَّنَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت وَتوماسين مِنَ التَّسَلُّلِ خارِجَتَيْنِ مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ.

وَقَبْلَ أَنْ يُغادِرَ القَرَوِيّونَ المَكانَ لَمَحوا لِسانَ النّارِ الَّتي كانَتْ مُشْتَعِلَةً في حَديقَةِ يوستاسيا وَجَدِّها الضّابِطِ البَحْرِيِّ المُتَقاعِدِ. وَغَمْغَمَ كريستيان كانتل بِعَصَبِيَّةٍ ظاهِرَةٍ: «رُبَّما كانَ لِهٰذِهِ النّارِ مَعْنًى!»

وَبَعْدَ أَنِ ٱنْصَرَفَ المُغَنّونَ فَرِحينَ، خَرَجَ ويلديف وَيَمَّمَ شَطْرَ البُرْجِ وَهُوَ يَنْظُرُ أَمامَهُ إِلى النّارِ الهادِرَةِ في دارِ يوستاسيا وَيُرَدِّدُ لِنَفْسِهِ: «أَجَلْ بِحَقِّ السَّماءِ يَنْبَغي أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْها.» ثُمَّ أَغَذَّ المَسيرَ قِبَلَ النّارِ كَأَنَّهُ يُطيعُ أَمْرَ ٱسْتِدْعاءٍ.

وَعِنْدَما كانَ القَرَوِيّونَ يَحْتَفِلونَ وَيُغَنّونَ في الفُنْدُقِ خَرَجَتْ يوستاسيا وَأَخَذَتْ طَريقَها إِلى رينبارو، ثُمَّ وَقَفَتْ بِلا حَراكٍ. وَكانَتْ مُلْتَفِعَةً بِعَباءَةٍ بَدَتْ فيها مَهيبَةً طَويلَةَ القامَةِ، وَأَخَذَتْ تَتَأَمَّلُ تِلْكَ الوَحْشَةَ الَّتي لَفَّتِ المَكانَ. كانَتْ كَأَنَّها تُنْصِتُ إِلى الرّيحِ الَّتي ما بَرِحَتْ تَعْصِفُ في نَغَماتٍ شَتّى.

بَعْدَ أَنْ هَبَطَتْ يوسْتاسْيا مِنْ فَوْقِ الرّابِيَةِ عادَتْ إِلى دارِ جَدِّها الواقِعَةِ في مَكانٍ مُنْعَزِلٍ عَلى مُرْتَفَعٍ مِيسْتَوِفَر، وَالمُحاطَةِ بِالخَنادِقِ وَالجَداوِلِ. وَكانَ الحَقْلُ الصَّغيرُ قُرْبَ المَنْزِلِ غَيْرَ ذي زَرْعٍ، وَكانَ جانِبٌ مِنَ الدّارِ مَحْمِيًّا بِدَغَلٍ مِنْ أَشْجارِ الشَّرْبينِ، وَبِالقُرْبِ مِنْهُ بِرْكَةٌ كَبيرَةٌ.

وَكانَ في الحَديقَةِ جوني نَنساتْش الَّذي يَتَوَلّى إِيقادَ النّارِ لِيوسْتاسْيا. فَرَفَعَ رَأْسَهُ عِنْدَما دَنَتْ مِنْهُ يوسْتاسْيا.



سَأَلَتْهُ مُسْتَفْسِرَةً: «هَلْ سَمِعْتَ أَصْواتَ الضَّفادِعِ؟»

«أَجَلْ يا آنِسَةُ. سَمِعْتُها مُنْذُ بُرْهَةٍ قَصيرَةٍ!»

«هٰذا يُنْبِئُ عَنْ قُرْبِ سُقوطِ المَطَرِ، فَيَحْسُنُ أَنْ تَذْهَبَ إِلى دارِكَ الآنَ.»

وَإِذْ كانَ جوني مُنْصَرِفًا سَمِعَ صَوْتًا آخَرَ، هُوَ صَوْتُ حَجَرٍ مَقْذوفٍ، وَكانَ هٰذا إِشارَةً إِلى حُضورِ وَيلْديڤ. وَيَبْدو أَنَّ جوني قَدْ سَمِعَ الحِوارَ الَّذي دارَ بَيْنَهُما.

همس ويلديف: «لقد حرمتني الراحة، فقد عرفت أن إيقاد النار كان إشارة لي كدعوة للحضور. كما فعلت في العام الماضي!»

«نعم. لكن امرأة أخرى ظهرت. لقد نفضت يدي منك، يا دامون، حتى سمعت أن زفافك لم يتم، ومن ثم خلتك لا تزال على وفائك لي، ولهذا السبب قررت إشعال النار، وقد وثقت أنك سوف تدرك ماذا تعني تلك النار. ولكن، خبرني، يا دامون، هل عدلت عن الزواج في اللحظة الأخيرة لأنك لا تستطيع التخلي عني وستظل تحبني إلى الأبد؟»

أجاب بشيء من الضيق: «نعم. وإلا ففيم حضوري؟» ثم أضاف: «تعنين أنك ستربنني مرة أخرى؟»

«فقط إذا اعترفت لي أن الزواج ألغي لأنك أحببتني أكثر مما تحبها!»

«إنما جئت طائعا لاستدعائك. حسبي هذا!» أجاب ويلديف بذلك ثم انفتل. وانصرف كذلك جوني مشدوها دون أن يلحظه أحد.

كانت يوستاسيا نقية نقاء الثوب الأبيض، وذات شعر فاحم أثيث وعينين ناعستين حافلتين بأسرار الليل، تذكر الإنسان بإلهة من آلهة الإغريق، لكنها من حيث الأصالة كانت أقرب إلى أهل الأرض، ذلك أن أباها كان قائد فرقة موسيقى عسكرية في كورفو، وعندما توفي قام على رعاية الطفلة المدللة الصغيرة جدها الذي كان قد تقاعد من الجيش وقتئذ وعاش في بيته السحيق الواقع بإغدون هيث، وقد حرص على أن تتلقى صغيرته قدرا طيبا من التعليم.

لقد كرهت يوستاسيا إغدون هيث التي لم تكن تتفق مع طبعها، ومع ذلك فقد استطاعت أن تحيط نفسها بهالات الجلال والرومانسية، وكان قصدها الأسمى أن تحب إلى حد الجنون، وكانت تتوق، ولو بجدع الأنف، أن تلقى الحب. فنار حب ملتهب تنطفئ للتو خير من نور حب ضعيف يستمر سنوات.

كانت تعرف حق المعرفة أنها رأت في ويلديف مجرد سلوى ترحمها من الرتابة اليومية. ولو قيض لها رجل أكثر افتتانا لأنهت علاقتها بويلديف إلى الأبد.



رَأى جوني نَنْساتْش وَهُوَ عائِدٌ إلى بَيْتِهِ، عَرَبَةَ الصَّبّاغِ ديغوري ڤين الحَمْراءَ، وَكانَ - مِثْلَ مُعْظَمِ الفِتْيانِ - يَرْهَبُهُ كَثيرًا. فَلَمّا سَمِعَ الصَّبّاغُ صَرْخَةَ جوني المَكْتومَةَ رَفَعَ رَأْسَهُ صائِحًا: «مَنْ هُناكَ؟»

رَدَّ عَلَيْهِ الآخَرُ: «جوني نَنْساتْش، يا سَيِّدي. كُنْتُ أَتَوَلّى إيقادَ النّارِ عَنِ الآنِسَةِ يوسْتاسْيا، وَقَدْ صَرَفَتْني عِنْدَما جاءَها أَحَدُ السّادَةِ لِيَراها.»

«هَلْ سَمِعْتَ ما دارَ بَيْنَهُما مِنْ حَديثٍ؟»

«أَجَلْ، يا سَيِّدي. قالَتِ الآنِسَةُ يوسْتاسْيا إِنَّها تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَمْ يَقْتَرِنْ بِالفَتاةِ الأُخْرى لِأَنَّهُ أَحَبَّها هِيَ أَكْثَرَ مِنَ الأُخْرى وَآثَرَها عَلَيْها.»

«وَماذا قالَ لَها ذٰلِكَ السَّيِّدُ؟»

«أَكَّدَ لَها أَنَّهُ يُحِبُّها أَكْثَرَ مِنَ الأُخْرى.»

صاحَ الصَّبّاغُ: «هٰذا هُوَ السِّرُّ؛ أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟»

وَبَعْدَ أَنِ انْصَرَفَ الصَّبِيُّ أَخْرَجَ ديغوري ڤين مِنْ جَيْبِ سُتْرَتِهِ رِسالَةً قَديمَةً باهِتَةً وَقَرَأَها بِاهْتِمامٍ بالِغٍ، وَكانَتْ مُؤَرَّخَةً بِتاريخٍ سابِقٍ عَنْ ذٰلِكَ اليَوْمِ بِعامَيْنِ.

«عَزيزي ديغوري ڤين،

أَنا لا أَسْتَطيعُ الِاقْتِرانَ بِكَ أَوِ السَّماحَ لَكَ بِأَنْ تَدْعُوَني حَبيبَتَكَ. إِنّي أُحِبُّكَ وَدائِمًا كُنْتُ أَضَعُكَ في مَكانَةٍ تالِيَةٍ لِابْنِ عَمّي كليم؛ وَلَيْسَ مَعْنى ذٰلِكَ أَنَّ شَخْصًا آخَرَ يَشْغَلُني، إِنَّما امْرَأَةُ عَمّي لَنْ تُوافِقَ أَبَدًا عَلى مِثْلِ ذٰلِكَ الزَّواجِ، تُريدُني أَنْ أَنْظُرَ إِلى أَعْلى وَلَيْسَ لِمُجَرَّدِ فَلّاحٍ بَسيطٍ يَصْنَعُ مُنْتَجاتِ الأَلْبانِ، وَأَنْ أَقْتَرِنَ بِرَجُلٍ ذي حِرْفَةٍ. سَوْفَ تَظَلُّ دائِمًا في خاطِري الرَّجُلَ النَّبيلَ.

صديقتك المخلصة توماسين يوبرايت».

مُنْذُ تَلَقّى ديغوري ڤين تِلْكَ الرِّسالَةَ لَمْ يَرَ توماسين حَتّى ذٰلِكَ اليَوْمِ الَّذي الْتَقَطَها فيهِ مِنْ وَسَطِ الطَّريقِ عَقِبَ فَشَلِ زَواجِها. وَفي خَيْبَةِ أَمَلٍ كانَ قَدْ هَجَرَ مِهْنَةَ صِناعَةِ الأَلْبانِ وَاسْتَقَرَّ عَلى حِرْفَةٍ أَقَلَّ مَكانَةً، وَمَرْدودُها قَليلٌ، هِيَ حِرْفَةُ الصِّباغَةِ.





ولقلقه ولهفته على توماسين رأى من واجبه أنْ يُلمَّ بكلِّ ما يجري بين ويلديف ويوستاسيا ، وذلك بالمداومة على مراقبة رينبارو.

وفي إحدى الأماسي لمحهما جالسين معًا على الهضبة الصغيرة ، فراح يزحف خفيةً إلى موقعٍ أفضل يمكنه فيه أنْ يسترق السمع ، لعلَّه يدرك شيئًا مما يدور.

قالت يوستاسيا : «إليك عنّي وتزوّج بتوماسين ، فإنها أقرب إلى مكانتك الاجتماعية.»

«إنّي لا أستطيع التخلّي عنك ، وفي الوقت نفسه لا أحبُّ أنْ أخدش كرامتها ، فإنّها لفتاةٌ طيّبةٌ سليمةُ الطويّة.»

ردّت عجلى بقولها : «حسنٌ. إذا لم تكن تحبّها حقيقةً فمن قبيل الرحمة أنْ تدعها وشأنها ؛ فهذا هو الطريق الأمثل. ولكن خبّرني أتحبّني حقًّا ؟»

«أحبّك ولا أحبّك !»



أجابت يوستاسيا وهي واثقةٌ بنفسها : «يمكنك أنْ تبتعد عن طريقي ، بيد أنك لن تستطيع نسياني وستظلّ على حبّك لي طول حياتك.»

«وإنّي لكذلك. يقينًا إنّي لكذلك.»

قال ويلديف ذلك في غير قليلٍ من القلق ، ثمّ مضى يقول : «إنّي أكره الوحشة التي تسود إغدون وإنّك أيضًا لكذلك ؛ لماذا إذًا نظلّ هنا ؟ ألا تصحبينني إلى أمريكا ؟»

قالت وهما يتمشّيان أسفل الهضبة : «مسألةٌ فيها نظرٌ. أعطني مهلةً للتفكير.»

أحزن ديغوري ڤين ما سمعه منهما ، وأحسّ بالإشفاق على توماسين ، وردّد في نفسه : «ماذا أفعل ؟ ماذا أستطيع أنْ أفعل ؟ أجل. لا بدّ أنْ أقابل يوستاسيا ڤاي تلك !»

وما إنْ أسفر صباح اليوم التالي حتّى استجمع ديغوري ڤين رباطة جأشه كي يذهب لمقابلة يوستاسيا ڤاي ، ومن حسن حظّه أنّها وافقت على لقائه.

بادَرَها ديغوري ڤين بِقَوْلِهِ : «لَدَيَّ أَنْباءٌ غَيْرُ سارَّةٍ عَنِ السَّيِّدِ وِيلْديف ، يا سَيِّدَتي . إِنَّهُ مِنَ المُحْتَمَلِ أَلّا يَتِمَّ زَواجُهُ بِتوماسين يوبرايت ، وَإِخالُكِ الشَّخْصَ الوَحيدَ في هٰذِهِ النّاحِيَةِ الَّذي يُمْكِنُهُ مَدُّ يَدِ العَوْنِ .»

بَقِيَتْ يوسْتاسْيا ساكِنَةً لا تَنْبِسُ ، وَمِنْ ثَمَّ أَحَسَّ ديغوري أَنَّ مِنَ الخَيْرِ أَنْ يَكونَ أَكْثَرَ وُضوحًا ، فَقالَ : «يا آنِسَةُ ڤاي . إِنّي لَعَلى عِلْمٍ تامٍّ بِما يَجْري بَيْنَكِ وَبَيْنَ السَّيِّدِ وِيلْديف . وَقَدْ سَمِعْتُ حَديثَكُما عَلى تَلِّ رينبارو اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ . وَلَيْسَ ثَمَّةَ غَيْرُكِ مَنْ يَقِفُ بَيْنَ وِيلْديف وَتوماسين . وَإِنَّهُ لَمِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَبْتَعِدي عَنْهُ !»

أَمّا يوسْتاسْيا فَقَدِ ارْتَجَفَتْ شَفَتُها ، وَامْتُقِعَ لَوْنُها وَراحَتْ تُغَمْغِمُ : «لَسْتُ عَلى ما يُرامُ ، وَلَنْ أَسْتَطيعَ الاسْتِماعَ إِلَيْكَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ . أَرْجوكَ ، دَعْني وَشَأْني !»

أَطاعَها الصَّبّاغُ وَمَضى لِحالِ سَبيلِهِ ، وَبَيْنَما كانَتْ يوسْتاسْيا تَدْلِفُ إِلى الدّارِ أَنْشَأَتْ تُرَدِّدُ لِنَفْسِها : «كَلّا ، لَنْ أَبْتَعِدَ عَنْهُ . لا ، لَنْ يَكونَ ذٰلِكَ أَبَدًا !»

قَرَّرَ الصَّبّاغُ ، الَّذي كانَ مُصِرًّا عَلى مُساعَدَةِ توماسين ، أَنْ يَتَّصِلَ بِالسَّيِّدَةِ يوبرايت ؛ فَما إِنْ لَمَحَها عَلى البُرْجِ مُوَلِّيَةً شَطْرَ فُنْدُقِ «الكوايت وومان» حَتّى وَجَدَها فُرْصَةً سانِحَةً ، وَوَجَّهَ إِلَيْها الخِطابَ التّالِيَ في احْتِرامٍ بالِغٍ : «سَيِّدَتي يوبرايت ، إِنّي قَلِقٌ عَلى الآنِسَةِ توماسين ، وَأُريدُ أَنْ تَعْرِفي أَنّي سَأَكونُ جِدَّ سَعيدٍ إِذا ما تَشَرَّفْتُ بِالاقْتِرانِ بِها . وَأَنا لَسْتُ فَقيرًا كَما يَتَراءى لَكِ ، بَلْ رُبَّما لَسْتُ أَفْقَرَ مِنْ وِيلْديف .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت بِأَدَبٍ جَمٍّ : «أَشْكُرُ لَكَ اهْتِمامَكَ بِتوماسين . لٰكِنَّها قالَتْ مَرّاتٍ عَديدَةً إِنَّها سَتَقْتَرِنُ بِالسَّيِّدِ وِيلْديف الرَّجُلِ الَّذي أَحَبَّتْهُ حَقيقَةً . لا يوجَدُ عِنْدي أَكْثَرُ مِنْ هٰذا . طابَ يَوْمُكَ .» وَوَلَّتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت مُيَمِّمَةً شَطْرَ الفُنْدُقِ ، وَقَدْ شَجَّعَها الطَّلَبُ الَّذي قَدَّمَهُ لَها الصَّبّاغُ ، وَرَفَعَ مِنْ مَعْنَوِيّاتِها .

كانَ وِيلْديف مُتَواجِدًا في «الكوايت وومان» ، فَأَوْصَلَ ضَيْفَتَهُ ، الَّتي لَمْ تُضَيِّعْ دَقيقَةً واحِدَةً ، إِلى الرَّدْهَةِ العامَّةِ فَقالَتْ : «لَعَلَّكَ لا تَدْري أَنَّ رَجُلًا آخَرَ قَدْ ظَهَرَ في المَيْدانِ لِيَقْتَرِنَ بِتوماسين .»



قالَ وَيلْديف : «حَسَنٌ إذا رَغِبَتْ فيهِ. وَلٰكِنْ أَنّى عَرَفْتِ أَنَّها سَتَقْبَلُهُ بَعْلاً؟»

«وَإِنَّها لَكَذٰلِكَ! وَإِنَّ عَلَيْكَ إِعْلامَها بِأَنَّكَ سَتَنْسَحِبُ مِنْ تِلْكَ المُباراةِ، وَمِنْ ثَمَّ سَيَجُرُّها خَدْشُ كِبْرِيائِها إلى قَبولِهِ.»

صاحَ السَّيِّدُ وَيلْديف بِشَيْءٍ مِنَ الحَيْرَةِ: «حَسَنٌ. سَأَدْرُسُ هٰذِهِ المَسْأَلَةَ، وَأَرُدُّ عَلَيْكِ في غُضونِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ.»

وَانْسَحَبَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت راضِيَةً بِحيلَتِها البارِعَةِ.

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ قامَ وِيلْديف بزيارةٍ خاطِفَةٍ لِيوسْتاسْيا ، وَصَرَّحَ لَها في لَهْفَةٍ وَقَلَقٍ قائلًا : «لَقَدْ تطوَّرَتِ الأُمورُ تَطَوُّرًا خطيرًا . يَجِبُ الآنَ أَنْ أَصِلَ إلى قرارٍ ؛ فَأَوَّلًا وقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَتُوافِقينَ عَلى تَرْكِ هٰذا المَكانِ إلى الأَبَدِ ، وَتَصْحَبينَني إلى خارِجِ البِلادِ ؟»

سَأَلَتْهُ يوسْتاسْيا : «ماذا حَدَثَ فَجْأَةً هٰكَذا ؟»

أَجابَ : «أَخْبَرَتْني السَّيِّدَةُ يوبرايت أَنَّها تَوَدُّ أَنْ أَتْرُكَ توماسين ؛ لأَنَّ رَجُلًا آخرَ يَتَمَنّى الاقْتِرانَ بِها ؛ وَلا إخالُهُ إلّا ديغوري ڤين !»

صَرَخَتْ فيهِ : «آهِ فَهِمْتُ ! أَنْتَ تُريدُ أَنْ تَتَزَوَّجَني لأَنَّكَ لا تَسْتَطيعُ الاقْتِرانَ بِها !»

وَأَدْرَكَتْ أَنَّها فازَتْ بِويلْديف . لٰكِنَّها أَحَسَّتْ بِانْتِصارٍ مُهينٍ ؛ إذْ إنَّها لَيْسَتْ سِوى بَديلٍ مُؤَقَّتٍ لِمُحِبِّها المُدَلَّهِ الوَلْهانِ !

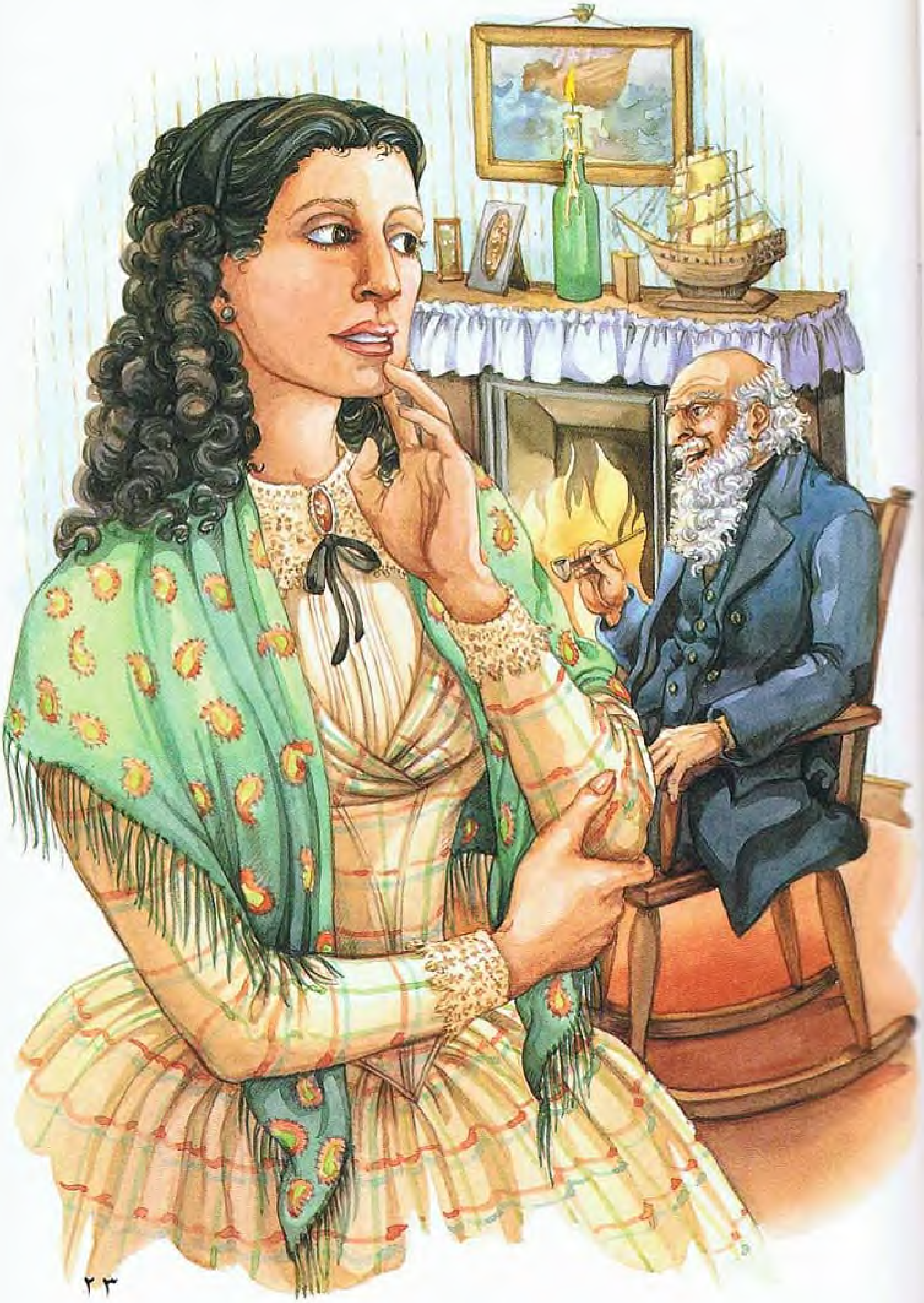
وَراحَ وَيلْديف يُضَيِّقُ الخِناقَ عَلَيْها حَتّى تَصِلَ إلى قَرارٍ حاسِمٍ ، وَناشَدَتْهُ أَنْ يُعْطِيَها مُهْلَةً لِلتَّفْكيرِ ، وَقالَتْ : «وَبِفَرْضِ أَنَّ توماسين تُريدُ التَّخَلُّصَ مِنْكَ . فَلَنْ أَنْسى ذٰلِكَ بِسُرْعَةٍ !» فَأَجابَها وَيلْديف في شَيْءٍ مِنَ الضِّيقِ : «لا عَلَيْكِ ؛ فَلْنَتَقابَلْ في رينبارو يَوْمَ الإثْنَيْنِ القادِمِ في نَفْسِ المَوْعِدِ . وَإلى اللِّقاءِ حَتّى نَتَقابَلَ .»

كانَتْ ثَمَرَةُ دِبْلوماسِيَّةِ السَّيِّدَةِ يوبرايت جَديرَةً بِالمُلاحَظَةِ حَقًّا ، رَغْمَ أَنَّ ذٰلِكَ كانَ مُخالِفًا لِما قَدْ تَوَقَّعَتْهُ . وَعَلى ما يَبْدو كانَ لِتِلْكَ الدِّبْلوماسِيَّةِ وَقْعُها عَلى وَيلْديف وَلٰكِنَّ تَأْثيرَها عَلى يوسْتاسْيا كانَ أَكْثَرَ ؛ ذٰلِكَ أَنَّ حَبيبَها لَمْ يَعُدْ ذٰلِكَ الرَّجُلَ المُثيرَ الَّذي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقاتِلَ المَرْءُ مِنْ أَجْلِهِ .

عادَتْ يوسْتاسْيا إلى دارِها تَعيسَةً مَهْمومَةً ، إلّا أَنَّ ذٰلِكَ الخَبَرَ الَّذي نَقَلَهُ إلَيْها جَدُّها قَدْ بَدَّلَ مِنْ مَعْنَوِيّاتِها .

«لا إخالُكِ ، يا يوسْتاسْيا ، إلّا عالِمَةً بِمَقْدَمِ الشّابِّ كليم يوبرايت الأُسْبوعَ القادِمَ ؛ لِقَضاءِ عُطْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ مَعَ والِدَتِهِ . وَهُوَ شابٌّ وَسيمٌ عاشَ في باريس مَدينَةِ الزُّخْرُفِ وَالضِّياءِ وَالفِتْنَةِ .»

أَمّا يوسْتاسْيا فَقَدْ بَدَأَ قَلْبُها يَخْفِقُ خَفَقانًا . تُرى أَيُمْكِنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ الأَحْلامُ ؟



فِي حَدِيقَةِ الضَّابِطِ البَحْرِيِّ كانَ همفري وَسام ، عامِلا الأَرْضِ المَحَلِّيَانِ ، يُكَوِّمانِ كُتَلَ الخَشَبِ وَالحُزَمَ حَطَبًا لِلشِّتاءِ . وَكانا يَتَحَدَّثانِ . وَإِذْ كانَ بابُ المَطْبَخِ مَفْتوحًا فَقَدْ بَلَغَ صَوْتُهُما مَسامِعَ يوسْتاسْيا . وَقَدْ أَثارَها حَديثُهُما فَانْكَفَأَتْ عَلَيْهِ مُنْصِتَةً .

قالَ همفري : «نَعَمْ . كانَ يَعيشُ فِي باريس . وَالنّاسُ تَقولُ إِنَّهُ تاجِرُ حُلِيٍّ وَماسٍ ثَرِيٌّ . وَإِنَّهُ مُدْمِنُ قِراءَةٍ وَاطِّلاعٍ تَمامًا مِثْلَ الآنِسَةِ ؛ فَرَأْسُها مُتْخَمٌ بِالكُتُبِ بَلْ وَبِالأَفْكارِ الغَريبَةِ كَذٰلِكَ . وَهِيَ وَكليم يُمْكِنُ أَنْ يَكُونا ثُنائِيًّا مُتآلِفًا .»

قالَ الآخَرُ : «أَصَبْتَ كَبِدَ الحَقيقَةِ . إِنَّ أُسْرَةَ كليم كَريمَةٌ تَمامًا مِثْلُ أُسْرَتِها ، وَإِنَّهُ لَيُسْعِدُني أَنْ أَراهُما زَوْجَيْنِ . حَقًّا ، إِنّي لَيُسْعِدُني ذٰلِكَ !»

عِنْدَما وَصَلَ كليم فِي المَوْعِدِ المُحَدَّدِ إِلى مَنْزِلِ والِدَتِهِ فِي بلومز إند حامِلًا عَدَدًا كَبيرًا مِنَ الحَقائِبِ ، اجْتاحَتْ يوسْتاسْيا رَغْبَةٌ عارِمَةٌ فِي أَنْ تَراهُ وَتَتَحَدَّثَ مَعَهُ .

وَراحَتْ تَتَمَشّى فِي خَمْسِ مُناسَباتٍ مُتَتالِيَةٍ عَبْرَ الأَرْضِ الفَسيحَةِ فِي اتِّجاهِ مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ يوبرايت لَعَلَّها تُقابِلُهُ . لٰكِنَّها فَشِلَتْ فِي إِجْراءِ أَيِّ اتِّصالٍ بِذٰلِكَ الشّابِّ الغامِضِ ، الآتي لِتَوِّهِ مِنْ باريس . وَالَّذي عَنْهُ اخْتَلَطَ القَلَقُ فِي رَأْسِها بِاللَّهْفَةِ وَالتَّصَوُّراتِ الرّومانْسِيَّةِ . وَمَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ فَسُرْعانَ ما راحَتْ تُخَطِّطُ لِلِقائِهِ .

وَفِي الأَسابيعِ السّابِقَةِ لِلَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ ، كانَ ثَمَّةَ تَقْليدٌ قَديمٌ يُتَّبَعُ فِي إغدون ؛ وَهُوَ عَرْضُ مَسْرَحِيَّةِ سان جورج ، وَهِيَ مَسْرَحِيَّةٌ صامِتَةٌ يَقومُ بِتَمْثيلِها الشَّبابُ .

وَكانَتْ تِلْكَ المَسْرَحِيَّةُ تُصَوِّرُ التَّنافُسَ بَيْنَ النّاسِ ، وَتَتَضَمَّنُ خَليطًا غَريبًا مِنَ الشَّخْصِيّاتِ ؛ مِثْلِ سان جورج وَالفارِسِ التُّرْكِيِّ وَالطَّبيبِ . وَكانَتْ تُمَثَّلُ بِغايَةِ المَهارَةِ وَالحَيَوِيَّةِ ، وَبِالشِّعْرِ غَيْرِ المَوْزونِ ، وَبِمَلابِسَ فِي غايَةِ الأَناقَةِ وَتَتَنَوَّعُ عُروضُها بَيْنَ أَرْقى أَنْواعِ الدِّراما وَأَحَطِّ صُنوفِ الكوميديا .

وَكانَتِ البروفاتُ تُجْرى دائِمًا فِي حَظيرَةِ الماشِيَةِ بِمَنْزِلِ الضّابِطِ ڤاي ؛ وَفِي خِلالِ ذٰلِكَ عَلِمَتْ يوسْتاسْيا مِنْ شارلي - وَهُوَ أَحَدُ المُعْجَبينَ بِها - أَنَّ العَرْضَ الأَوَّلَ سَيَكونُ فِي دارِ السَّيِّدَةِ يوبرايت ، احْتِفاءً بِعَوْدَةِ كليم . وَأَدْرَكَتْ يوسْتاسْيا أَنَّها بِمُلاصَقَتِها لِلْمُمَثِّلينَ تَسْتَطيعُ الفَوْزَ بِالدُّخولِ إِلى دارِ السَّيِّدَةِ يوبرايت وَرُبَّما قابَلَتْ هُناكَ ابْنَها كليم .





هٰكَذا ٱسْتَغَلَّتْ يوسْتاسْيا إعْجابَ شارلي الشَّديدَ بها لِتَسْتَعيرَ سُتْرَتَهُ، وَبِذٰلِكَ يُسْمَحُ لَها بِالِٱنْخِراطِ في زُمْرَةِ المُمَثِّلينَ.

وَكانَ العَرْضُ في دارِ السَّيِّدَةِ يوبرايت بَهِيًّا يَدْعو إلى الإعْجابِ. وَٱسْتَطاعَتْ يوسْتاسْيا أَنْ تَدْرُسَ كليم عَنْ كَثَبٍ، آمِنَةً في مَلْبَسِها المُسْتَعارِ. أَخيرًا دُعِيَ المُمَثِّلونَ لِتَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ، لٰكِنَّ يوسْتاسْيا لَمْ تُغامِرْ بِخَلْعِ خوذَتِها لِتَأْكُلَ، بَيْدَ أَنَّها تَمَكَّنَتْ مِنْ تَناوُلِ بَعْضِ الشَّرابِ دونَ أَنْ تُفْصِحَ عَنْ هُوِيَّتِها.

وَقَدْ أَتْرَعَها بِالجَذَلِ ٱكْتِشافُها أَنَّ كليم يوبرايت بَدا كَأَنَّهُ يوليها ٱهْتِمامًا خاصًّا. وَأَخيرًا نَهَضَ وَوَقَفَ بِجِوارِها بَعْضَ الوَقْتِ، ثُمَّ قالَ لَها: «يُخالِجُني شَكٌّ غَريبٌ؛ إِذْ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّكِ فَتاةٌ!»

قالَتْ مُقِرَّةً بِذٰلِكَ: «وَإِنّي لَكَذٰلِكَ!»



قالَ كليم: «وَفيمَ ٱشْتِراكُكِ في مَسْرَحِيَّةٍ صامِتَةٍ؟ الفَتَياتُ قَلَّما يَفْعَلْنَ ذٰلِكَ.»

أَجابَتْ: «طَلَبًا لِلإِثارَةِ وَلِأَنْفُضَ عَنْ نَفْسي غُبارَ الشُّعورِ بِالمَلَلِ.»

وَلَمْ يُعَقِّبْ كليم وَإِنَّما ٱبْتَسَمَ وَٱسْتَأْذَنَها في الِٱنْصِرافِ.

وَشَعَرَتْ يوسْتاسْيا بِسُرورٍ بالِغٍ وَٱرْتِفاعٍ في مَعْنَوِيّاتِها؛ فَها قَدْ أَذابَتِ الجَليدَ حَقًّا! لٰكِنَّها وَهِيَ في طَريقِها إلى دارِها في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ظَلَّتْ تُرَدِّدُ بِٱنْفِعالٍ: «لَيْتَني تَرَكْتُ دامون يَتَزَوَّجُ توماسين! لَوْلايَ لَكانَ ذٰلِكَ قَدْ تَمَّ.»

وَتَحَرَّكَتْ يوسْتاسْيا بِسُرْعَةٍ؛ فَفي صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي ٱنْطَلَقَتْ تَنْشُدُ ديغوري ڤين في صَوْمَعَتِهِ؛ وَإِذْ تَبَيَّنَ لَها عَظيمُ ٱهْتِمامِهِ بِتوماسين طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَحْمِلَ رِسالَةً إلى وَيلْديف. وَقالَتْ لَهُ: «يَجِبُ أَنْ تَقْرَأَ ما كَتَبْتُ. لَقَدْ فَعَلْتُ ما أَمَرْتَني أَنْتَ أَنْ أَفْعَلَ.»

وَفي شَيْءٍ مِنَ الحَيْرَةِ فَضَّ ديغوري ڤين الظَّرْفَ وَقَرَأَ الرِّسالَةَ :

«إلى السَّيِّدِ وَيلْديف

بَعْدَ شَيْءٍ مِنَ الرَّوِيَّةِ وَإعْمالِ الفِكْرِ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَنْ يَكونَ بَيْنَنا أَيُّ ٱرْتِباطٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ . لَقَدْ خَدَعْتَني وَخَتَلْتَني بِتَقَرُّبِكَ لِتوماسين وَأَنْتَ تَخْطُبُ وُدّي وَتَتَظاهَرُ بِأَنَّكَ تُحِبُّني . وَما كانَ أَحْراني أَنْ أَتَّخِذَ هٰذِهِ الخُطْوَةَ حالَما سَمِعْتُ بِخِطْبَتِكُما .

يوسْتاسْيا »

مِنَ الجَلِيِّ أَنَّ وَيلْديف قَدْ صُدِمَ بِهٰذا الطَّرْدِ بِذٰلِكَ الأُسْلوبِ الجافِّ المُقْتَضَبِ مِنْ يوسْتاسْيا . وَإِذْ قَبِلَ هٰذا الأَمْرَ عَلى عِلّاتِهِ ، وَكانَ أَمْرًا مَحْتومًا ؛ فَقَدْ صَحَّتْ عَزيمَتُهُ عَلى المُضِيِّ إلى توماسين وَالاقْتِرانِ بِها ، مُحاوِلًا أَنْ يَجْعَلَ مِنْ هَزيمَتِهِ تِلْكَ ٱنْتِصارًا ، مِنْ خِلالِ تَوْبيخِهِ الصَّبّاغَ . بادَرَهُ بِتَهَكُّمٍ : «حَسَنٌ ، يا سَيِّدُ ڤين . أَنْتَ الآنَ خارِجَ اللُّعْبَةِ ؛ لَقَدْ طالَبْتُ بِأَحَقِّيَّتي في الزَّواجِ بِتوماسين . طابَ مَساؤُكَ أَيُّها الصَّبّاغُ ! »

لَمْ تَكَدِ المَسْرَحِيَّةُ الصّامِتَةُ تَأْتي إلى نِهايَتِها حَتّى غادَرَ كليم المَكانَ وَمَضى لِزِيارَةِ أَحِبّائِهِ وَقَضاءِ بِضْعَةِ أَيّامٍ مَعَهُمْ .

في تِلْكَ الفَتْرَةِ بِعَيْنِها أَقْبَلَ وَيلْديف لِزِيارَةِ السَّيِّدَةِ يوبرايت ، وَصارَحَها وَتوماسين بِأَنَّهُ قَدْ وَضَعَ التَّرْتيباتِ اللّازِمَةَ لِإتْمامِ الزَّواجِ ، وَأَنْ يَتِمَّ الزَّواجُ في غُضونِ يَوْمَيْنِ . وَأَكَّدَ لَهُما أَنَّهُ لَنْ يَطْرَأَ أَيُّ تَغْييرٍ أَوْ خَطَإٍ عَلى هٰذا المَوْعِدِ المَضْروبِ .

وَفي المَوْعِدِ المُحَدَّدِ أَصَرَّتْ توماسين عَلى الذَّهابِ وَحْدَها ، مِمّا آلَمَ السَّيِّدَةَ يوبرايت أَشَدَّ الإيلامِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَمْضِ طَويلُ وَقْتٍ عَلى ذٰلِكَ حَتّى كانَ في جَعْبَةِ السَّيِّدَةِ يوبرايت أَشْياءُ أُخْرى تَتَطَلَّبُ التَّفْكيرَ ؛ ذٰلِكَ أَنَّهُ ما كادَتْ توماسين تَذْهَبُ حَتّى عادَ كليم في حالَةٍ بادِيَةٍ مِنَ الاضْطِرابِ . وَكانَ كليم قَدْ سَمِعَ بِما جَرى لِتوماسين مِنْ إهانَةٍ عَلى يَدِ وَيلْديف ، وَعَوَّلَ عَلى الوُصولِ إلى جَلِيَّةِ الأَمْرِ وَكَشْفِ المُخَبَّأِ . لَقَدْ كانَ غَضَبُهُ بِلا حُدودٍ عِنْدَما أَخْبَرَتْهُ أُمُّهُ أَنَّهُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ كانَ يَجْري زِفافُ توماسين إلى وَيلْديف دونَ حُضورِ أَحَدٍ مِنْ أَفْرادِ الأُسْرَةِ .

صَرَخَ كليم : «أُمّي . ما مَنَعَكِ أَنْ تُخْبِريني بِهٰذا مِنْ قَبْلُ ؟»

«لَمْ أَشأْ أَنْ أُزْعِجَكَ يا كليم ، ذٰلِكَ لِعِلْمي كَمْ كُنْتَ دائِمًا كَلِفًا بِتوماسين. وَأَنْتَ لا تَتَصَوَّرُ كَمْ عانَيْتُ طَوالَ هٰذِهِ الأَسابيعِ السَّبْعَةِ الأَخيرَةِ!»

«وَلٰكِنْ أَمِنَ العَدْلِ أَنْ نَضَعَها في هٰذا المَأْزِقِ ثانِيَةً؟ اَلرَّجُلُ مَشْكوكٌ في نِيّاتِهِ. أَتَمَنّى أَنْ يُخْفِقَ في الحُضورِ في المَوْعِدِ. إِنّي لَماضٍ إِلى هُناكَ حَتّى أَكونَ بِجانِبِها.»

عَلى أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَبْرَحَ أَقْبَلَ ديغوري ڤِن عَلَيْهِما ، فَٱبْتَدَرَتْهُ السَّيِّدَةُ يوبرايت سائِلَةً: «هَلْ تَمَّ زَواجُها؟» فَأَجابَ: «أَجَلْ ، يا سَيِّدَتي. لَقَدْ شَهِدْتُ كُلَّ شَيْءٍ.»

سَأَلَتْهُ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «وَهَلْ حَضَرَ الزِّفافَ أَحَدٌ؟»

قالَ ديغوري وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ بَعْضُ الضّيقِ: «اَلآنِسَةُ ڤاي.»

اِسْتَفْسَرَ كليم: «وَمَنْ هِيَ الآنِسَةُ ڤاي؟»

أَجابَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «حَفيدَةُ الكابتن ڤاي ، القاطِنِ في ميستوڤر ناب ، وَهِيَ فَتاةٌ مَغْرورَةٌ جاءَتْ مِنْ بدماوث وَلَمْ تُصادِفْ هَوًى في نَفْسي.»

بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ الصَّبّاغُ السَّيِّدَةَ يوبرايت وَكليم ، غادَرَ تِلْكَ النّاحِيَةَ وَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَراهُ في إغدون هيث لِعِدَّةِ أَشْهُرٍ ، وَكانَ كُلُّ ما تَبَقّى مِنْ مَسْكَنِهِ البَسيطِ في الوادي الصَّغيرِ بَيْنَ نَباتِ العُلَّيْقِ هُوَ بَعْضَ حُزَمِ القَشِّ.





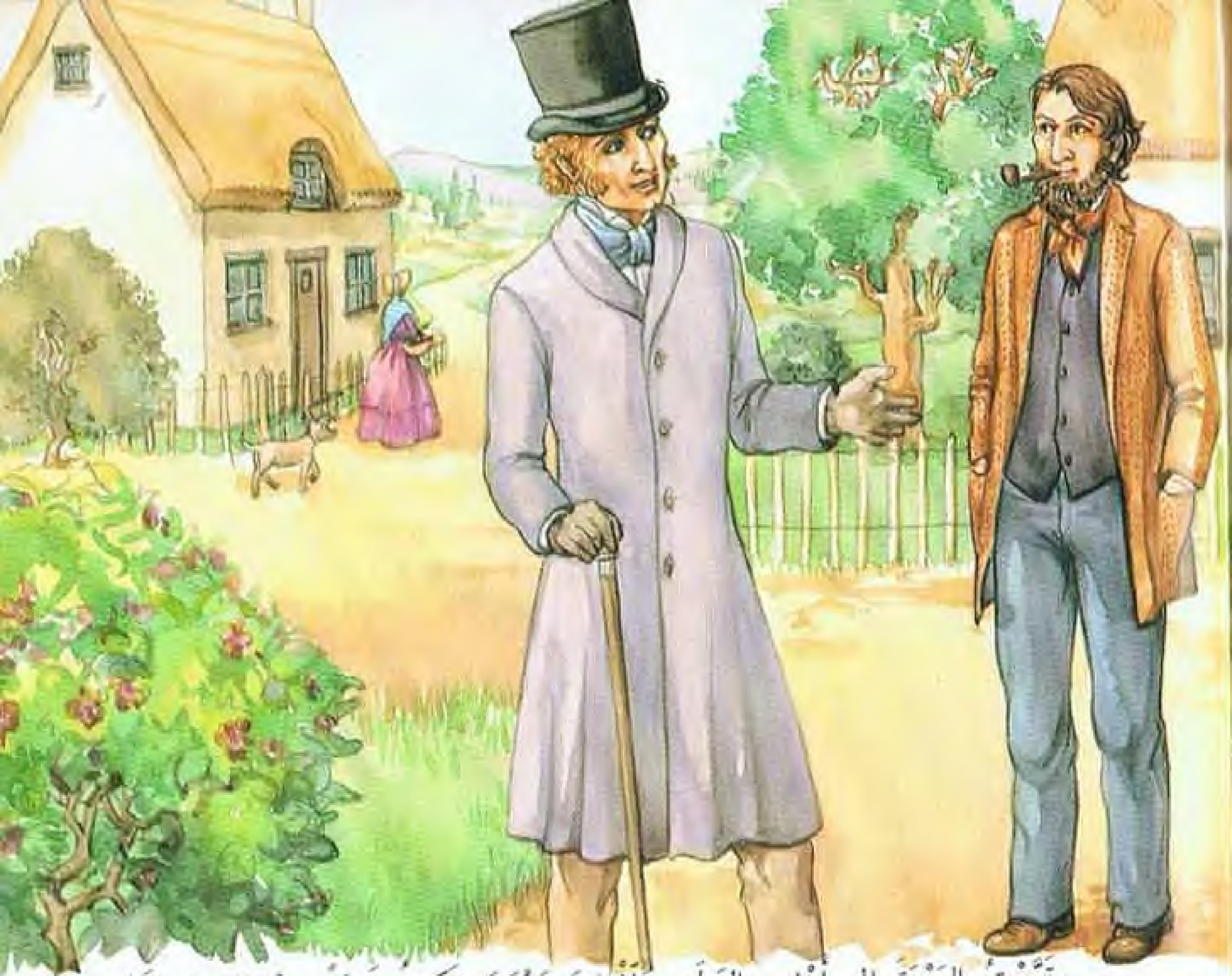
لَمْ يُبْدِ كليم أَيَّةَ بادِرَةٍ تفيدُ أَنَّه عائِدٌ إلى باريس ، رَغْمَ انْقِضاءِ فترةٍ زمَنِيَّةٍ طويلةٍ. وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ باتَ أَهْلُ البَلْدَةِ حيارَى ، وَكانَ كليم على عِلْمٍ بِهٰذِهِ الحَيْرَةِ.

في صَبيحَةِ أَحَدِ أَيامِ الآحادِ ، كانَ جَمْعٌ مِنْهُمْ أَمامَ صالونِ الحلّاقِ ، فدَنا مِنْهُمْ صائِحًا : «وَالآنَ ، يا قَوْمُ ، أما كَفاكُمْ ثَرْثَرَةً عَنّي ؟»

اعْتَرَفَ تيموثي قائِلًا : «إِنّنا لا نَفْهَمُ لِماذا تَتَعَلَّقُ بِهٰذِهِ الجهَةِ وَقَدْ بَنَيْتَ لَكَ اسْمًا في عالَمِ تِجارَةِ الحُلِيِّ ؟ هٰذِهِ حَقيقَةُ ما دارَ بَيْننا.»

قالَ كليم : «حَسَنٌ ! إِنّي مُخَبِّرُكُمْ ، وَإِنَّهُ لَيَسُرُّني أَنْ أُتيحَتْ لي هٰذِهِ المُناسَبَةُ لِكَيْ أُخْبِرَكُمْ بِأَنّني أَقَلُّ تَفاهَةً هُنا مِنّي في أَيِّ مَكانٍ آخَرَ. وَقَدْ أَحْسَسْتُ مُؤَخَّرًا أَنَّ عَمَلي في باريس كانَ أَكْثَرَ تَفاهَةً وَأَشَدَّ غُرورًا ، وَأَقْرَبَ إلى روحِ الإناثِ بِالنِّسْبَةِ لِأَيِّ رَجُلٍ كانَ ! وَهٰذا ما أَدّى بي إلى هٰذا القَرارِ الحاسِمِ.»

وَنَظَرَ سُكّانُ المَرْجِ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في حَيْرَةٍ شَديدَةٍ ، وَتابَعَ كليم :



«قَرَّرْتُ العَوْدَةَ إلى أَرْضِ الوَطَنِ وَافْتِتاحَ مَدْرَسَةٍ تكونُ قَريبَةً مِنْ إغدون بِقَدْرِ المُسْتَطاعِ ، لَكِنَّهُ كانَ لِزامًا عَلَيَّ أَنْ أَدْرُسَ أَوَّلًا وَأَتَعَمَّقَ في الدَّرْسِ لِلْحُصولِ عَلى المُؤَهِّلاتِ اللّازِمَةِ. وَبِهٰذِهِ الطَّريقَةِ يَكونُ في مَقْدوري تَقْديمُ أَعْظَمِ خِدْمَةٍ لِجيراني.»

وَفي غَمْرَةِ السُّكونِ الَّذي أَعْقَبَ ذٰلِكَ التَّصْريحَ مَضى كليم في سَيْرِهِ عَبْرَ المَرْجِ.

قالَ فيرويبي وَهُوَ يَهُزُّ رَأْسَهُ : «لَنْ يَسْتَطيعَ تَنْفيذَ ذٰلِكَ.»

أَمّا همفري فَقَدْ عَلَّقَ : «إِنَّها فِكْرَةٌ نَبيلَةٌ ، وَلٰكِنْ لَيْتَهُ يَهْتَمُّ بِأُمورِهِ.»

كانَ المَثَلُ الأَعْلى لِكليم في هٰذِهِ الحَياةِ أَنْ يَرْبِطَ بَيْنَ الحَياةِ البَسيطَةِ وَالفِكْرِ الرَّفيعِ. لَقَدْ أَحَبَّ المَرْجَ ؛ فَقَدْ نَشَأَ فيهِ وَتَفَتَّحَتْ عَيْناهُ عَلَيْهِ ، وَكانَتْ لُعَبُهُ مِنَ الأَدَواتِ الحَجَرِيَّةِ الَّتي عَثَرَ عَلَيْها فيهِ ، وَكانَتْ أَيْضًا مِنْ كُئوسِ الأَزْهارِ الأُرْجُوانِيَّةِ وَالنَّباتاتِ الصَّفْراءِ. أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِيوسْتاسْيا فَقَدْ كانَ المَرْجُ وَكُلُّ ما دَلَّ عَلَيْهِ مَوْضِعَ كَراهِيَةٍ وَمَحَطَّ بَغْضاءَ ، وَذٰلِكَ عَلى العَكْسِ مِنْ كليم الَّذي كانَ يَراهُ رَمْزًا لِلْحُبِّ.

عقَدَ كليم العَزْمَ يوْمًا على أنْ يُطْلِعَ أُمَّهُ على خُطَطِهِ، فقالَ: «لَسْتُ عائدًا إلى باريس، يا أُمّي، فإنّي أكْرهُ ما كُنْتُ أتولّى مِنْ عَمَلٍ هُناكَ. إنّهُ تافِهٌ! وأَنا أُريدُ أنْ أنْهضَ بعَمَلٍ ذي قيمةٍ هُوَ أنْ أكونَ مُدرِّسًا أُعلِّمُ الفُقَراءَ والجُهّالَ الّذينَ جعَلَهُمُ المُجْتمعُ دَبْرَ أُذُنِه.»

قالَتْ لَهُ أُمُّهُ وَهِيَ تُحاورُهُ على مَرْفَإِ الدُّموعِ: «هَلْ يُمْكِنُ أنْ تفْعَلَ هٰذا بَعْدَ الّذي بُذِلَ مِنْ عَناءٍ مِنْ أجْلِ اسْتِهْلالٍ طَيِّبٍ لَكَ في هٰذِهِ الحَياةِ؟ إنَّ تَخَيُّلاتِكَ هٰذِهِ سَوْفَ تَكونُ سَبَبَ دَمارِكَ وَسوءِ حالِكَ.»

قالَ: «ما بِاليَدِ حيلَةٌ. إنّي لَأُبْغِضُ عَمَلي البَرّاقَ في باريس.»

وَقَطَعَ حَديثَهُما فَجْأَةً دُخولُ كريستيان كانتل أَصْغَرِ أَبْناءِ غراندفر كانتل، فَسَأَلَتْهُ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «ماذا وَراءَكَ، يا كريستيان؟»

قالَ: «يا سَيِّدَتي، في صَبيحَةِ هٰذا اليَوْمِ، وَنَحْنُ أَثْناءَ الصَّلاةِ، نَدَتْ صَرْخَةٌ مُرَوِّعَةٌ، وَاتَّضَحَ أنَّ سوزان نَنْساتْش نَخَسَتِ الآنِسَةَ ڤاي بِإِبْرَةِ جَوارِبَ طَويلَةٍ، عَلى مَأْلوفِ عادَتِها في الوَعيدِ.»

كانَ ذٰلِكَ تَهْديدًا مِنْ سوزان لِيوسْتاسْيا ڤاي؛ كَيْ تَضَعَ حَدًّا لِفِتْنَتِها ابْنَها الصَّغيرَ جوني نَنْساتْش وَأَخَواتِهِ وَمُحاوَلَةِ إغْوائِهِمْ. الأَمْرُ الَّذي تَكَرَّرَ وَدامَ.

فَما كانَ جَوابُ السَّيِّدَةِ يوبرايت إلّا قَوْلَها: «يا لَلْهَوْلِ!»

وَما انْقَضَتْ سِوى أَيّامٍ عَلى ذٰلِكَ، حَتّى تَوَجَّهَ كليم - مَدْفوعًا بِغَريزَةِ حُبِّ الاسْتِطْلاعِ - إلى دارِ الضّابِطِ ڤاي، وَبِرُفْقَتِهِ بَعْضُ القَرَوِيّينَ الَّذينَ كانوا يُصْلِحونَ بِئْرَ الحَديقَةِ، وَقَدْ عَزَمَ عَلى لِقاءِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ السّاحِرَةِ الَّتي حَضَرَتْ دونَ سابِقِ إنْذارٍ حَفْلَةَ عُرْسِ توماسين.

وَبَيْنَما كانَ العُمّالُ مُنْهَمِكينَ في عَمَلِهِمْ قَدَّمَ كليم نَفْسَهُ لِلشّابَّةِ الفاتِنَةِ الَّتي كانَتْ واقِفَةً عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ، وَكانَ تيموثي فيرويي يُساعِدُها في تَضْميدِ يَدِها الَّتي كانَتْ قَدْ جُرِحَتْ مِنْ حَبْلِ البِئْرِ عِنْدَما انْزَلَقَ مِنْ يَدِها وَهِيَ تُجَرِّبُ إنْزالَ الدَّلْوِ في البِئْرِ.



قالَتْ يوسْتاسْيا : «هٰذِهِ هِيَ الإصابَةُ الثّانِيَةُ لي خِلالَ هٰذا الأُسْبوعِ ... لَيْسَ مِنَ المُفيدِ اتِّخاذُ إجْراءٍ ضِدَّ امْرَأَةٍ قَرَوِيَّةٍ جاهِلَةٍ مِثْلِ سوزان نَنساتْش ! »

قالَ كليم : «لَقَدْ عُدْتُ لِأُزيلَ بُيوتَ العَنْكَبوتِ وَالتُّرَّهاتِ وَالأَباطيلَ. أَوَ تُحِبّينَ أَنْ تُساعِديني في تَعْليمِهِمْ؟»

أَجابَتْ : «يُؤْسِفُني أَنْ لَيْسَ بي أَيُّ حَماسٍ في هٰذا المَوْضوعِ ، فَإِنّي لا أُحِبُّ مُواطِنِيَّ كَثيرًا بَلْ أَراني أَحْيانًا أُبْغِضُهُمْ ! »

سَأَلَها : «أَتَشْعُرينَ بِالوَحْشَةِ وَالعُزْلَةِ هُنا في إغدون؟»

قالَتْ يوسْتاسْيا : «أَجَلْ ، وَلا أُطيقُ المَرْجَ . »

عادَ يَسْأَلُها : «أَتَقولينَ ذٰلِكَ عَنْ صِدْقٍ؟ عِنْدي أَنَّ المَرْجَ مُبْهِجٌ لِلْغايَةِ ، وَهُوَ يُقَوّي الإِنْسانَ وَيُسَرّي عَنْهُ. إِنَّهُ عِنْدي بِالقِياسِ إلى حَياةِ الغُرورِ في باريس الجَنَّةُ بِعَيْنِها . »

فَعَلَّقَتْ : «أَمّا أَنا فَإِخالُ شَوارِعَ باريس العَريضَةَ أَقْرَبَ لِقَلْبي مِنْ ها هُنا ! »

أَحَسَّ كليم في ذٰلِكَ اليَوْمِ وَهُوَ في طَريقِهِ إلى مَنْزِلِهِ أَنَّ خُطَّتَهُ في طَريقِها لِلنَّجاحِ ، فَقَدْ دَخَلَتْ فيها فَتاةٌ جَميلَةٌ ، وَمِنْ تِلْكَ الآوِنَةِ ضاعَفَ كليم اهْتِمامَهُ بِدِراسَتِهِ ؛ فَكانَ يَسْتَذْكِرُ عاكِفًا اللَّيْلَ بِطولِهِ ، إلّا أَنَّهُ كانَ يَخْرُجُ لِلتَّنَزُّهِ عَلى المَرْجِ ساعَةَ الأَصيلِ .

وَفي إِحْدى الأُمْسِيّاتِ وَصَلَ كليم إلى دارِهِ مُتَأَخِّرًا فَأَلْفى أُمَّهُ تَنْتَظِرُهُ في قَلَقٍ ، فَقالَ : «كُنْتُ أَسْتَمْتِعُ بِنُزْهَةٍ طَويلَةٍ عَلى المَرْجِ . » فَسَأَلَتْهُ : «وَهَلْ قابَلْتَ يوسْتاسْيا هُناكَ؟»

أَجابَ : «أَجَلْ ، قابَلْتُها اللَّيْلَةَ ، لٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ بِناءً عَلى مُواعَدَةٍ . »

قالَتْ أُمُّهُ في تَهَكُّمٍ : «لا . إِنَّ مِثْلَ هٰذِهِ المُقابَلاتِ لا تَكونُ كَذٰلِكَ ! »

وَمَرَّتِ الشُّهورُ وَازْدادَ هُيامُ كليم بِيوسْتاسْيا . وَفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي بَواكيرِ فَصْلِ الرَّبيعِ عادَ مِنْ إِحْدى لِقاءاتِهِ الَّتي أَمْسَتْ مُنْتَظِمَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ يوسْتاسْيا . وَعَقِبَ العَشاءِ قالَتْ أُمُّهُ : «إِنّي لَمُنْزَعِجَةٌ ! أَيْ كليم ، إِنَّكَ لَتُفْني حَياتَكَ هُنا وَما ذاكَ إلّا بِسَبَبِها . إِنَّها امْرَأَةٌ كَسْلى شَرِهَةٌ . لِماذا تَسْعى إلى رَبْطِ حَياتِكَ بِامْرَأَةٍ؟»



«ثَمَّةَ أَسْبابٌ عَمَلِيَّةٌ ؛ إذا أَنْشَأْتُ مَدْرَسَةً سَأَحْتاجُ لِمُساعَدَةِ امْرَأَةٍ مُتَعَلِّمَةٍ.»

صَرَخَتْ فيهِ أُمُّهُ: «ماذا؟ أَتَعْني حَقيقَةً أَنَّكَ تُريدُ الِاقْتِرانَ بِها؟»

وَما إنْ سَمِعَ هٰذِهِ الكَلِماتِ حَتّى خَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ.

أَمْضى كليم اليَوْمَ التالِيَ مُعَذَّبًا حائِرًا، وَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ عَلَيْهِ اتِّخاذَ قَرارٍ حاسِمٍ. وَلِذٰلِكَ تَوَجَّهَ في المَساءِ لِمُقابَلَةِ يوسْتاسْيا.



بادَرَ كليم يوسْتاسْيا قائِلًا : «لَيْسَ مِنَ المعْقولِ أَنْ نَسيرَ هٰكَذا. علَيْنا أَنْ نَتزوَّجَ.»

قالَتْ يوسْتاسْيا : «يَجِبُ أَنْ أُفكِّرَ... حَدِّثْني عَنْ باريس.»

«لَشَدَّ ما أَكْرَهُ التَّحَدُّثَ عَنْ باريس!»

«لا تُسيءِ الظَّنَّ بي، إِنّي أُحِبُّكَ رَغْمَ ٱشْتِياقي لِلْحَياةِ في باريس.»

وبَعْدَ أَنِ ٱفْتَرَقَ الحبيبانِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، ٱتَّخَذَ كليم سَبيلَهُ إِلى دارِهِ حَيْرانَ مُشَتَّتَ الرّوحِ، يُسائِلُ نَفْسَهُ كَيْفَ يُوَفِّقُ بَيْنَ المَطالِبِ المُتَعارِضَةِ لِأُمِّهِ ويوسْتاسْيا، وبَيْنَ خُطَطِهِ هُوَ.

ولَحِقَ الرَّبيعُ بِالشِّتاءِ، وسَرْعانَ ما راحَ الصَّيْفُ يَقْرَعُ الأَبْوابَ. وفي أَحَدِ أَيّامِ شَهْرِ مايو عادَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت بَعْدَ الظُّهْرِ مِنْ زِيارَةٍ لِتوماسين في الكوايت وومان، ودَخَلَتْ عَلى ٱبْنِها فَقَطَعَتْ عَلَيْهِ مُذاكَرَتَهُ ثُمَّ دَخَلَتْ في المَوْضوعِ مُباشَرَةً.

«أَشاعَ الكابتنُ ڤاي في الفُنْدُقِ أَنَّكَ وَيوسْتاسْيا قَدْ تَمَّتْ خِطْبَتُكُما.»

«نَعَمْ، يا أُمّي. لٰكِنَّنا لَنْ نَتزَوَّجَ قَريبًا.»

«وَتُريدُ أَنْ تَصْطَحِبَها إلى باريس عَلى حَدِّ ظَنّي؟»

«كَلّا. سَأَبْقى هُنا. سَأَفْتَحُ مَدْرَسَةً في بدماوث. وَلَسَوْفَ تُساعِدُني يوسْتاسْيا.»

«إذا اَعْتَمَدْتَ عَلى يوسْتاسْيا فَلَنْ يُحالِفَكَ التَّوْفيقُ. إنَّها مُغامَرَةٌ غَيْرُ مَضْمونَةِ العَواقِبِ. لَيْسَ ثَمَّةَ فَتاةٌ مُحْتَرَمَةٌ تَتَجَوَّلُ عَلى المَرْجِ لَيْلًا وَنَهارًا كَما تَفْعَلُ يوسْتاسْيا. وَهٰذا لَيْسَ كُلَّ شَيْءٍ، بَلْ لَقَدْ كانَ بَيْنَها وَبَيْنَ زَوْجِ توماسين في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ عَلاقَةٌ غَريبَةٌ.»

«يوسْتاسْيا صارَحَتْني بِكُلِّ هٰذا.. لا يَنْبَغي أَنْ نَخْتَلِفَ في هٰذِهِ المَسْأَلَةِ. لَقَدْ كُنْتُ آمُلُ في تَرْتيبِ لِقاءٍ بَيْنَكِ وَبَيْنَ يوسْتاسْيا، لٰكِنَّ ذٰلِكَ الآنَ لَيْسَ بِالأَمْرِ المُسْتَحْسَنِ.»

خَرَجَ كليم وَأَخَذَ يَقْطَعُ الطَّريقَ خِلالَ أَشْجارِ السَّرْخَسِ مُيَمِّمًا شَطْرَ رينبارو حَيْثُ كانَتْ يوسْتاسْيا تَنْتَظِرُهُ، وَراحَ يَقُصُّ لَها خُطَّتَهُ: «لَنْ تَسيرَ الأُمورُ هٰكَذا يا يوسْتاسْيا. لا بُدَّ مِنْ زَواجِنا في الحالِ. لَقَدِ اَدَّخَرْتُ مِنَ النُّقودِ ما يَكْفينا، وَلَنْ يَقِفَ عائِقٌ في سَبيلِنا. يُمْكِنُنا أَنْ نُقيمَ مَعًا في كوخٍ صَغيرٍ عَلى المَرْجِ حَتّى أُتِمَّ دِراسَتي، وَبَعْدَها نَتَّخِذُ دارًا في بدماوث لِتَكونَ مَدْرَسَةً. وَلَنْ يَسْتَغْرِقَ ذٰلِكَ طَويلَ وَقْتٍ.»

وَتَصَرَّفَ كليم بِتَعَجُّلٍ: فَما اَنْبَلَجَ صَباحُ اليَوْمِ التّالي حَتّى اَسْتَأْجَرَ كوخًا صَغيرًا في أَلْدَرْويرْث عَلى مَسافَةِ سِتَّةِ أَمْيالٍ في مَكانٍ مِنَ المَرْجِ مُنْعَزِلٍ. وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ شَرَعَ في حَزْمِ كُتُبِهِ وَمُتَعَلِّقاتِهِ، وَأَنْهى إلى أُمِّهِ أَنَّهُ مُغادِرٌ في اليَوْمِ التّالي.

قالَ لِأُمِّهِ: «عِنْدَما يَسْتَقِرُّ بِنا المُقامُ أَنا وَيوسْتاسْيا فَأَرْجو أَنْ تَتَكَرَّمي بِزِيارَتِنا.»

هُنالِكَ تَطَلَّعَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت إلى اَبْنِها بِوَجْهٍ لاحَ فيهِ الأَلَمُ الشَّديدُ، وَهِيَ تَرُدُّ عَلَيْهِ: «لا أَظُنُّني فاعِلَةً ذٰلِكَ!»

قالَ: «إِذًا فَلَنْ يَكونَ هٰذا خَطَئي وَلا خَطَأَ يوسْتاسْيا، يا أُمّي.»

وَإِذْ قالَ هٰذا نَهَضَ فَقَبَّلَها. ثُمَّ اَفْتَرَقا وَفي قَلْبِ كُلٍّ مِنْهُما مِنَ الهَمِّ وَالحَسْرَةِ ما تَنوءُ بِحَمْلِهِ الجِبالُ.

وَجاءَ مَوْعِدُ الزِّفافِ، وَكانَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت - الجالِسَةُ وَحْدَها في البَيْتِ - تَتَعَجَّبُ مِمّا كانَ يَحْدُثُ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَرْجِ ؛ فَما إنْ حَلَّتِ السّاعَةُ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ حَتّى قَرَعَ سَمْعَها صَلْصَلَةُ الأَجْراسِ مُعْلِنَةً زِفافَ يوسْتاسْيا إلى ٱبْنِها.

رَدَّدَتْ لِنَفْسِها: «قُضِيَ الأَمْرُ. وَلٰكِنْ سَوْفَ يَأْتي اليَوْمُ الَّذي يَعَضُّ فيهِ بَنانَ النَّدَمِ.»

وَمَضى الزَّمَنُ. وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ فَوْقَ إغدون مُحَوِّلَةً الخَلَنْجَ الأُرْجُوانِيَّ إلى اللَّوْنِ القِرْمِزِيِّ. وَكانَ كليم وَيوسْتاسْيا قَدِ ٱسْتَقَرّا في كوخِهِما في أَلْدَرْويرْث عَلى الجانِبِ الشَّرْقِيِّ لإغدون، يَعيشانِ عيشَةَ البَساطَةِ مُسْتَمْتِعَيْنِ بِالسَّعادَةِ.

وَبَعْدَ بِضْعَةِ أَسابيعَ مِنَ الرّاحَةِ وَالاسْتِرْخاءِ، عادَ كليم فَٱسْتَأْنَفَ دِراسَتَهُ مُكِبًّا عَلَيْها. وَلَمْ تَفْقِدْ يوسْتاسْيا حُلْمَها في عَوْدَةِ كليم إلى باريس بِرُفْقَتِها.

وَفي أَحَدِ الأَيّامِ نَمى إلى السَّيِّدَةِ يوبرايت أَنَّ يوسْتاسْيا كانَتْ في طَريقِها إلى ميستوفر ناب لِزِيارَةِ جَدِّها، وَمِنْ ثَمَّ عَزَمَتْ عَلى أَنْ تَذْهَبَ لِتَرى يوسْتاسْيا هُناكَ بَدَلًا مِنْ زِيارَتِها في كوخِها في أَلْدَرْويرْث.



وَما إنْ بَلَغَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت ذٰلِكَ المَكانَ حَتّى أَلْفَتْ يوسْتاسْيا في الحَديقَةِ.

قالَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «إِنَّما جِئْتُ لِأَراكِ!»

قالَتْ يوسْتاسْيا مُحْنَقَةً: «أَحَقًّا؟» غَيْرَ مُلْقِيَةٍ بالًا لِتَغَيُّبِ السَّيِّدَةِ يوبرايت عَنْ حَفْلِ الزِّفافِ، ثُمَّ أَضافَتْ: «لَمْ أَنْتَظِرْ حُضورَكِ؛ فَقَدْ كُنْتُ أُحِسُّ أَنَّكِ ضِدّي.»

رَدَّتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «إِنَّهُ لا يُخْجِلُني أَنْ أُصارِحَكِ بِالحَقيقَةِ. لَقَدْ كُنْتُ ثابِتَةً عَلى مَبْدَئي في مُعارَضَةِ زَواجِكِ بِابْني، أَمّا الآنَ فَقَدْ قَبِلْتُهُ. وَالحَقيقَةُ أَنّي مُسْتَعِدَّةٌ لِلتَّرْحيبِ بِكِ بِرَغْمِ يَقيني أَنَّكِ لَسْتِ كُفْئًا تَمامًا لابْني.»

أَمّا يوسْتاسْيا فَقَدْ بَرَّحَ بِها الغَضَبُ عِنْدَما صَدَمَ سَمْعَها ذٰلِكَ التَّعْليقُ، وَصاحَتْ بِها في حِدَّةٍ: «لَوْ دارَ بِخَلَدي في تِلْكَ الآوِنَةِ أَنّي سَأَعيشُ في زَريبَةٍ مَكْشوفَةٍ في هٰذا المَرْجِ الموحِشِ لَفَكَّرْتُ مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ قَبْلَ أَنْ أَقْتَرِنَ بِابْنِكِ! إِنَّكِ تَظُنّينَني قادِرَةً عَلى عَمَلِ الشَّرِّ؛ لَقَدْ أَوْعَزْتِ إِلَيْهِ بِأَنّي شَجَّعْتُ السَّيِّدَ وَيلْديف عَلى اهْتِمامِهِ بي. وَهٰكَذا أَنْتِ دائِمًا تُسَمِّمينَ أَفْكارَهُ وَتوغِرينَ صَدْرَهُ عَلَيَّ!»

وَحينَ عادَتْ يوسْتاسْيا إِلى بَيْتِها، بَدا لِكْليم أَنَّها مُضْطَرِبَةٌ غايَةَ الاضْطِرابِ، وَصاحَتْ فيهِ بِمَرارَةٍ: «لَقَدْ رَأَيْتُ أُمَّكَ وَلَنْ أَراها مَرَّةً ثانِيَةً! لَقَدْ أَهانَتْني بِزَعْمِها أَنّي لَسْتُ كُفْئًا لَكَ كَزَوْجَةٍ، وَأَلْمَحَتْ إِلى أَنّي بِسَبيلِ تَدْميرِ حَياتِكَ؛ فَفَقَدْتُ أَعْصابي وَتَفَوَّهْنا كِلانا بِعِباراتٍ لا يُمْكِنُ أَبَدًا غُفْرانُها. آهِ يا كْليم! دَعْنا نَخْرُجْ مِنْ هٰذا كُلِّهِ. خُذْني إِلى باريس وَعُدْ إِلى عَمَلِكَ القَديمِ.»

قالَ: «لٰكِنَّكِ تَعْلَمينَ، يا يوسْتاسْيا، أَنّي طَرَدْتُ هٰذِهِ الفِكْرَةَ عَنْ بالي مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ، وَبِالطَّبْعِ لَمْ أُمَنِّكِ بِالأَمَلِ في أَنْ تَذْهَبي إِلى باريس.»

قالَتْ وَهِيَ تَبْكي: «أَنا مُقِرَّةٌ بِذٰلِكَ. لٰكِنّي أَظُنُّ أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ الإِنْصاتُ إِلى آرائي.»

«حَسَنٌ! هُناكَ أُمورٌ اتَّفَقْنا عَلى أَلّا نَسْتَرْسِلَ في مُناقَشَتِها، فَظَنَنْتُ أَنَّنا اتَّفَقْنا عَلَيْها بِالرِّضا وَالقَبولِ.»

عقبَ هٰذهِ الأَحْداثِ المُؤْسِفَةِ راحَ كليم يَسْعى إلى ما يُخَفِّفُ عَنْهُ حِدَّةَ العَناءِ وَلَمْ يَجِدْ سِوى المُضِيِّ في الاَسْتِذْكارِ حَتّى أَحَسَّ أَنَّ عَيْنَيْهِ تُؤْلِمانِهِ. فَلَمّا ٱزْدادَتِ الحالَةُ سوءًا ذَهَبَ إلى الطَّبيبِ الَّذي أَشارَ عَلَيْهِ بالمُكْثِ في غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ لِمُدَّةِ أُسْبوعٍ، وَأَنْ يَكُفَّ تَمامًا عَنِ القِراءَةِ لِفَتْرَةٍ ما، ثُمَّ نَصَحَ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِقَضاءِ فَتْرَةِ ٱسْتِرْواحٍ طَويلَةٍ في الهَواءِ الطَّلْقِ.

وَفي إِحْدى جَوْلاتِهِ تَقابَلَ مَعَ همفري قاطعِ شَجَرِ الرَّتَمِ أَثْناءَ تَنَقُّلِهِ لِمُمارَسَةِ عَمَلِهِ، وَهٰذا ما أَغْراهُ بالتَّفْكيرِ في أَنْ يَحْتَرِفَ تِلْكَ الحِرْفَةَ الصِّحِّيَّةَ النّافِعَةَ، لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمانِ. وَما إِنْ عَرَضَ هٰذِهِ الفِكْرَةَ عَلى يوسْتاسْيا حَتّى غَضِبَتْ، إِذْ أَفْزَعَتْها الفِكْرَةُ حَتّى ٱمْتُقِعَ لَوْنُها وَصاحَتْ مُعْتَرِضَةً: «كَلّا، كَلّا، يا كليم!» وَلٰكِنَّهُ كانَ مُصِرًّا، لِذٰلِكَ ما ٱنْصَرَمَ سِوى يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ حَتّى بَدَأَ كليم مِهْنَتَهُ الجَديدَةَ. وَكانَ يَعْمَلُ مُرْتَدِيًا المَلابِسَ الجِلْدِيَّةَ الخَشِنَةَ، حامِلًا بِيَدِهِ المِنْجَلَ. كانَ يَبْدَأُ في الرّابِعَةِ فَجْرًا، ثُمَّ يَسْتَريحُ ساعَتَيْنِ عِنْدَ الظَّهيرَةِ وَيَسْتَأْنِفُ العَمَلَ حَتّى غُروبِ الشَّمْسِ.

لَقَدْ قَطَّعَ نِياطَ قَلْبِ يوسْتاسْيا مُشاهَدَةُ زَوْجِها عَلى المَرْجِ، رَجُلًا مِسْكينًا بَرَّحَ بِهِ العَذابُ وَالأَلَمُ، غارِقًا في عَرَقِهِ مُكْتَوِيًا بِحَرارَةِ الشَّمْسِ اللّافِحَةِ، وَلَيْسَ مِنْ أَجْرٍ عَلى عَمَلِهِ إِلّا دُرَيْهِماتٌ لا تُسْمِنُ وَلا تُغْني مِنْ جوعٍ. وَأَحَسَّتْ بالمَهانَةِ. وَما ٱنْفَكَّتْ تَذْرِفُ الدَّمْعَ سَخينًا عَلى حُطامِ آمالِها العُظْمى، بَلْ لَقَدْ راوَدَتْها الرَّغْبَةُ في هَجْرِهِ.

وَفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي الصَّيْفِ الدّافِئَةِ، وَلِكَيْ تُخَفِّفَ يوسْتاسْيا مِنِ ٱكْتِئابِها، أَخْبَرَتْ كليم بِأَنَّها ذاهِبَةٌ إِلى قَرْيَةٍ مُجاوِرَةٍ لِمُشاهَدَةِ رَقْصِ الرّيفِيّاتِ، ثُمَّ تَصادَفَ أَنْ لَقِيَتْ هُناكَ دامون وَيلْديف، فَطَفِقا يَتَمَشَّيانِ عَبْرَ الأَرْضِ الفَسيحَةِ غَيْرَ شاعِرَيْنِ بِأَنَّ الصَّبّاغَ ديغوري ڤين، الَّذي كانَ قَدْ عادَ إِلى العَمَلِ في تِلْكَ المِنْطَقَةِ، قَدْ لَمَحَهُما مَعًا.

أَمّا ديغوري، الَّذي لَمْ يَزَلْ مُتَعَلِّقًا بِتوماسين، فَطَفِقَ يُهَرْوِلُ مُتَوَجِّهًا ناحِيَةَ الكوايت وومان حَيْثُ كانَتْ توماسين تَتَرَقَّبُ أَوْبَةَ وَيلْديف، فَقالَتْ لِديغوري وَهِيَ مُطْمَئِنَّةٌ لا يُداخِلُها أَيُّ شَكٍّ فيهِ: «لا بُدَّ أَنَّ دامون عائِدٌ الآنَ.» فَأَجابَ «نَعَمْ. لَقَدْ رَأَيْتُهُ مُنْذُ لَحَظاتٍ يَشْتَري حِصانًا آيَةً في الجَمالِ، بِوَجْهٍ أَبْيَضَ وَعُرْفٍ أَسْوَدَ.»

عَقَّبَتْ توماسين قائِلَةً : «شَيْءٌ مُذْهِلٌ ! إِنَّنا لَسْنا في حاجَةٍ إلى جَوادٍ آخَرَ.»

وَٱسْتَأْذَنَ ديغوري في الإنْصِرافِ وَٱنْصَرَفَ. وَإِنْ هِيَ إلّا عَشْرُ دَقائِقَ حَتّى بَلَغَ وَيلْديف دارَهُ فَحَيَّتْهُ زَوْجَتُهُ بِأَحْسَنِ تَحِيَّةٍ، وَسَأَلَتْهُ : «أَيْنَ الحِصانُ، يا دامون؟ إِنَّ أَحَدَهُمْ رَآكَ تَقودُهُ إلى هُنا، وَيَقولُ إِنَّهُ فِتْنَةٌ بِوَجْهِهِ الأَبْيَضِ وَعُرْفِهِ الأَسْوَدِ.»

«عَجَبًا ! مَنْ أَنْبَأَكِ بِهٰذا؟»

«ديغوري فين الصَّبّاغُ.»

«كَلّا، إِنَّها غَلْطَةٌ. رُبَّما رَأَى شَخْصًا يُشْبِهُني.»

قالَ وَيلْديف ذٰلِكَ وَهُوَ يُسائِلُ نَفْسَهُ عَمّا إذا كانَ فين قَدْ شَرَعَ في شَنِّ الهُجومِ عَلَيْهِ !





وَقَدْ ثَبَتَتْ صِحَّةُ ذٰلِكَ ؛ فَإِنَّ ديغوري ، وَقَدْ لَحَظَ أَنَّ وَيلْديف قَدْ جَدَّدَ اتِّصالَهُ بيوسْتاسْيا وَأَنَّهُ اعْتادَ أَنْ يُرى ماشِيًا عَبْرَ المَرْجِ أَمامَ كوخِها ، شَرَعَ في العَمَلِ . فَذاتَ مَساءٍ عَثَرَتْ قَدَمُ وَيلْديف في حِبالَةٍ كانَ قَدْ نَصَبَها لَهُ في أَحَدِ المَمَرّاتِ ، وَبَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ قامَ ديغوري ، الَّذي كانَ مُخْتَبِئًا في تِلْكَ النّاحِيَةِ ، بِإِطْلاقِ النّارِ في مَسارِ وَيلْديف . هٰذِهِ الأَحْداثُ قَدْ نالَتْ مِنْ حَماسَةِ وَيلْديف في القِيامِ بِرِحْلاتِهِ اللَّيْلِيَّةِ .

بَعْدَ هٰذِهِ الحالِ قامَ ديغوري بِزِيارَةٍ لِلسَّيِّدَةِ يوبرايت ، وَأَعْطاها تَقْريرًا وافِيًا عَنِ المَرَضِ الَّذي أَلَمَّ بِعَيْنِ كليم ، وَكَيْفَ أَنَّهُ اتَّخَذَ مِنْ قَطْعِ الأَخْشابِ حِرْفَةً مُؤَقَّتَةً . وَلَمْ تَكُنِ السَّيِّدَةُ عَلى عِلْمٍ بِأَيٍّ مِنْ هٰذِهِ التَّطَوُّراتِ ؛ إِذْ كانَتْ قَدْ رَفَضَتْ أَنْ تَزورَ يوسْتاسْيا . وَهٰكَذا اغْتَنَمَ ديغوري ڤين هٰذِهِ الفُرْصَةَ السّانِحَةَ المُتَمَخِّضَةَ عَنْ هٰذا الخَبَرِ السَّيِّئِ ؛ وَراحَ يُراوِدُها بِأَنَّهُ أَوْلى بِها – لِطَلَبِ الطُّمَأْنينَةِ – أَنْ تَقومَ بِزِيارَةِ كليم وَيوسْتاسْيا في كوخِهِما .

قالَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت مُوافِقَةً عَلى ذٰلِكَ وَقَدْ هَزَّها وَضْعُ ابْنِها المُهينُ : «أَجَلْ ، أَكونُ سَعيدَةً أَكْبَرَ سَعادَةٍ لَوْ تَمَّ التَّصالُحُ بَيْنَنا . سَأَعْمَلُ بِنَصيحَتِكَ ، وَإِنّي لَماضِيَةٌ لِأَراهُما . »

في الوَقْتِ الَّذي كانَ ديغوري يُحاوِلُ إِقْناعَ السَّيِّدَةِ يوبرايت بِالصُّلْحِ ، كانَ كليم يُقْنِعُ يوسْتاسْيا في أَلْدِرْويرْث بِنَفْسِ المَوْضوعِ .



قالَتْ يوسْتاسْيا لِكليم : «لَنْ أَضَعَ أَيَّةَ عَقَبَةٍ في طَريقِكَ ، يا كليم ، لٰكِنْ لا تَتَوَقَّعْ مِنّي القِيامَ بِالخُطْوَةِ الأُولى . »

كانَتِ السّاعَةُ توشِكُ عَلى الحادِيَةَ عَشْرَةَ تَقْريبًا ، في صَباحِ يَوْمٍ صائِفٍ مِنْ أَيّامِ شَهْرِ أُغسطس ، عِنْدَما بَدَأَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت سَيْرَها عَبْرَ المَرْجِ مُيَمِّمَةً شَطْرَ بَيْتِ ابْنِها . وَذٰلِكَ في مُحاوَلَةٍ مِنْها لِإِصْلاحِ ذاتِ البَيْنِ بَيْنَها وَبَيْنَ كليم ويوسْتاسْيا .

وَلَمّا لَمْ تَكُنِ السَّيِّدَةُ يوبرايت قَدْ زارَتْ تِلْكَ الدّارَ مِنْ قَبْلُ ، فَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ عَلى وَجْهِ التَّحْديدِ الطَّريقَ إِلَيْها ، وَمِنْ ثَمَّ سَأَلَتْ عَنِ الطَّريقِ أَحَدَ الحَطّابينَ . فَقالَ لَها : «سَيِّدَتي ، أَتَرَيْنَ الحَطّابَ الَّذي يَتَحَرَّكُ هُناكَ ؟ إِذا تَبِعْتِهِ ، فَسَيُبَلِّغُكِ تِلْكَ الدّارَ . »

لَمْ يَمْضِ طَويلُ وَقْتٍ حَتّى أَدْرَكَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت ، مِنْ مِشْيَةِ وَحَرَكاتِ ذٰلِكَ الحَطّابِ الَّذي كانَتْ تَقْفو أَثَرَهُ ، أَنَّهُ ابْنُها ؛ فَما إِنْ رَأَتْهُ عَلى تِلْكَ الهَيْئَةِ حَتّى غَشِيَتْها صَدْمَةٌ جائِحَةٌ .

كانَ كليم بجوارِ بَيْتِهِ على مسافةِ نِصْفِ ميلٍ على الأقلِّ مِنْها. بَيْدَ أَنَّها اَضْطُرَّتْ إلى أَخْذِ قِسْطٍ مِنَ الرّاحةِ في ظِلِّ بَعْضِ الأَشْجارِ، فَلَمحَها جوني نِنساتْش، الَّذي كانَ يَلْتَقِطُ بَعْضَ ثِمارِ الكَرَزِ. فَقَبَعَ بَيْنَ الأَشْجارِ فَتْرَةً تَكْفي لِمُشاهَدَةِ كُلِّ الأَحْداثِ الَّتي تلاحَقَتْ؛ إِذْ هَمَّتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت بالذَّهابِ بَعْدَ أَنِ اَسْتَراحَتْ رُبْعَ ساعةٍ فوجِئَتْ بِرَجُلٍ آخَرَ يَدْنو مِنَ البابِ. وَراحَتْ تَرْقُبُهُ وَهُوَ يَطوفُ حَوْلَ المَنْزِلِ كَمَنْ يَسْتَرِقُ السَّمْعَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الدّارَ حَقيقَةً. وَدَلَفَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت إلى المَدْخَلِ حَيْثُ كانَ قُفّازُ اليَدِ وخُطّافُ قَطْعِ الأَخْشابِ وَحُزَمٌ قَدْ تَرَكَها كليم حالَ دُخولِهِ المَنْزِلَ.

لَمْ تُدْرِكِ السَّيِّدَةُ يوبرايت أَنَّ ذٰلِكَ الزّائِرَ ما كانَ غَيْرَ وَيلْديف، الَّذي كانَ قَدْ عَزَمَ عَلى أَنْ يَزورَ يوسْتاسْيا في وَضَحِ النَّهارِ. حَتّى وَلَوْ كانَ كليم مُتَواجِدًا، مُتَذَرِّعًا بِأَنَّ زِياراتِهِ لا تَزيدُ عَلى كَوْنِها زِياراتٍ اَجْتِماعِيَّةً بَريئَةً.

وَنَقَرَ وَيلْديف عَلى البابِ نَقْرَةً هادِئَةً، فَفَتَحَتْ يوسْتاسْيا البابَ، وَسَمَحَتْ لِلزّائِرِ بِالدُّخولِ، وَقالَتْ بِصَوْتٍ خَفيضٍ: «لا تَقْلَقْ! كليم يَغِطُّ في نَوْمِهِ في الغُرْفَةِ الخَلْفِيَّةِ.»

وَدَفَعَتْ يوسْتاسْيا بابَ الرَّدْهَةِ فَاَنْفَتَحَ. وَجَفَلَ وَيلْديف عِنْدَما شاهَدَ كليم راقِدًا في سُباتِهِ العَميقِ عَلى بِساطٍ مَفْروشٍ عَلى الأَرْضِ، وَقَدْ نَهَكَهُ التَّعَبُ مِنْ وَعْثاءِ عَمَلِ الصَّباحِ. التَّناقُضُ الجَلِيُّ بَيْنَ سُتْرَةِ وَيلْديف الأَنيقَةِ وَمَلابِسِ زَوْجِها الخَشِنَةِ، مَلابِسِ الكوخِ، حَزَّ في نَفْسِها حَزًّا.

عَلى أَنَّهُما قَبْلَ أَنْ يُتِمّا كَلامَهُما كانَ ثَمَّةَ نَقْرَةٌ عَلى البابِ الأَمامِيِّ فَيَمَّمَتْ يوسْتاسْيا إلى إِحْدى النَّوافِذِ وَتَطَلَّعَتْ مِنْ خِلالِها ثُمَّ هَمَسَتْ في أُذُنِ وَيلْديف قائِلَةً: «إِنَّها السَّيِّدَةُ يوبرايت! ما أَبْشَعَ ما فاهَتْ بِهِ في وَجْهي! لَقَدِ اَرْتابَتْ في صَداقَتِنا الماضِيَةِ وَأَنْحَتْ بِاللّائِمَةِ عَلَيَّ. إِنّي أَمْقُتُ تِلْكَ المَرْأَةَ، وَلَنْ أَفْتَحَ لَها. لَقَدْ جاءَتْ طَبْعًا لِزِيارَةِ كليم. وَهٰكَذا يَسْتَطيعُ هُوَ أَنْ يَأْذَنَ لَها بِالدُّخولِ.» وَعِنْدَما بَلَغا هٰذِهِ النُّقْطَةَ أَحَسّا بِكليم وَهُوَ يَتَمَلْمَلُ في رَقْدَتِهِ وَيَهْتِفُ هَتْفَةً شِبْهَ مَكْتومَةٍ: «أُمّي.»

قالَتْ يوسْتاسْيا: «نَعَمْ إِنَّهُ يَقْظانُ، وَسَيَمْضي إلى البابِ. يَحْسُنُ أَنْ تَتَسَلَّلَ خارِجًا، يا دامون. اِتْبَعْني مِنْ هٰذا الطَّريقِ.»





وَما كادَتْ تَفْرُغُ مِنْ كَلامِها حَتّى بادَرَتْ إِلى البابِ الخَلْفِيِّ فَأَخْرَجَتْ وِيلْديف إِلى الحَديقَةِ الجَرْداءِ الَّتي عَبَثَتْ بِها يَدُ الإِهْمالِ. وَبِذٰلِكَ كانَ في اسْتِطاعَتِهِ مُغادَرَةُ المَكانِ دونَ أَنْ يَلْحَظَهُ أَحَدٌ.

وَمَكَثَتْ يوسْتاسْيا بِضْعَ دَقائِقَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ الغُرْفَةَ الخَلْفِيَّةَ كَيْما تَرى كليم وَأُمَّهُ؛ بَيْدَ أَنَّها ما إِنْ فَتَحَتِ البابَ حَتّى تَبَيَّنَ لَها - لِدَهْشَتِها - أَنَّ كليم لَمْ يَزَلْ في سُباتِهِ وَحْدَهُ، فَهَرْوَلَتْ إِلى البابِ الأَمامِيِّ فَلَمْ تَجِدْ أَحَدًا وَتَوارَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت وَقَدْ نالَ مِنْها الأَسى والحُزْنُ، ثُمَّ قَفَلَتْ عائِدَةً إِلى دارِها وَهِيَ تُغَمْغِمُ: «هٰذا كَثيرٌ جِدًّا. كَيْفَ يَتَحَمَّلُ كليم هٰذا الفِعْلَ؟ كانَ في الدّارِ وَأُغْلِقَ البابُ دونَ أُمِّهِ!»

وَانْطَلَقَتْ تُجالِدُ شِدَّةَ القَيْظِ، غَيْرَ أَنَّها اضْطُرَّتْ إِلى الرّاحَةِ آخِرَ الأَمْرِ، وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها أَقْبَلَ جوني نَنْساتْش الصَّغيرُ عَبْرَ المَمَرِّ، وَلَمْ تَفُتْهُ مُلاحَظَةُ مَظاهِرِ الإِعْياءِ عَلى وَجْهِ السَّيِّدَةِ يوبرايت. سَأَلَها: «أَأَنْتِ مَريضَةٌ، يا سَيِّدَتي؟»

غَمْغَمَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت: «لَقَدْ أُغْلِقَ بابُ ابْني دوني! لَمَحَتْني زَوْجَتُهُ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ وَأَبَتْ أَنْ تَفْتَحَ لي البابَ. لَقَدْ أَغْلَقَتْهُ دوني!»

وَإِذْ غابَ عَنْ جوني إِلى أَيِّ مَدًى وَصَلَ بِها الإِعْياءُ، انْطَلَقَ في سَبيلِهِ وَقَدْ حَيَّرَتْهُ غَمْغَماتُها. بَعْدَ ذٰلِكَ عالَجَتِ السَّيِّدَةُ يوبرايت النُّهوضَ عَلى ساقَيْها وَراحَتْ تَتَرَنَّحُ عَلى المَمَرِّ.

وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها تَقْريبًا كانَ كليم يَصْحو مِنْ نَوْمِهِ وَقَدْ أَنْعَشَهُ ذٰلِكَ النَّوْمُ؛ وَتَطَلَّعَ مِنَ النّافِذَةِ ثُمَّ تَوَجَّهَ بِالقَوْلِ لِيوسْتاسْيا: «أُسْبوعٌ في رِدْفِ أُسْبوعٍ وَأُمّي لا تَأْتي لِتَزورَنا. إِنّي لَذاهِبٌ إِلَيْها اللَّيْلَةَ لِأَراها فَإِنّي أَعْتَقِدُ أَنَّها لَعاجِزَةٌ عَنِ السَّيْرِ في الخَلاءِ وَحْدَها.»

في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَرَغْمَ احْتِجاجاتِ يوسْتاسْيا الَّتي شَعَرَتْ بِالذَّنْبِ، وَأَقْلَقَها حادِثُ بَعْدَ الظَّهيرَةِ، انْطَلَقَ كليم عَبْرَ الأَرْضِ الفَسيحَةِ. وَعَلى مَسافَةِ ثَلاثَةِ أَمْيالٍ سَيْرًا عَلى الأَقْدامِ عَثَرَ عَلى شَبَحِ امْرَأَةٍ جاثِيَةٍ، وَشَدَّ ما أَدْهَشَهُ أَنَّ الجاثِيَةَ كانَتْ أُمَّهُ الَّتي كانَتْ تُعالِجُ أَنْفاسَها المُتَعَسِّرَةَ المُتَعَثِّرَةَ، وَتُقاوِمُ الغَيْبوبَةَ بِشَقِّ النَّفْسِ؛ فَحَمَلَها بِلُطْفٍ إِلى أَقْرَبِ مَأْوًى لِحَطّابٍ، ثُمَّ هُرِعَ إِلى كوخِ تيموثي فيرويي طَلَبًا لِلْمُساعَدَةِ. وَسُرْعانَ ما جاءَ العَوْنُ في شُخوصِ فيرويي وَهمفري وَسامِ وَسوزان نَنْساتْش وَأولي دارون وَغراندفر كانتل، الَّذينَ هُرِعوا مَتْبوعينَ بِالطَّبيبِ.

في تِلْكَ الأَثْناءِ كانَتْ يوسْتاسْيا تَتَرَقَّبُ أَوْبَةَ كليم وَقَدْ أَخَذَ مِنْها الهَلَعُ وَالذَّنْبُ، ثُمَّ قَرَّرَتْ فَجْأَةً المُضِيَّ إلى بلومز إند، أَمَلًا في لِقاءِ كليم وَهُوَ عائِدٌ إلى الدّارِ. وَإِذْ هَمَّتْ بِالخُروجِ طَرَقَ سَمْعَها صَوْتُ عَرَبَةٍ قادِمَةٍ حَيْثُ تَبَيَّنَ أَنَّ القادِمَ جَدُّها.

قالَ الرَّجُلُ: «يوسْتاسْيا، هَلْ سَمِعْتِ أَنَّ وَيلْديف قَدْ هَبَطَتْ عَلَيْهِ ثَرْوَةٌ؟ لَقَدْ ماتَ عَمُّهُ في كندا وَتَرَكَ لَهُ كُلَّ ما يَمْلِكُ، وَهُوَ مَبْلَغٌ يُقَدَّرُ بِأَحَدَ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الجُنَيْهاتِ!» وَقَفَتْ يوسْتاسْيا بِلا حَراكٍ وَسَأَلَتْهُ: «مُنْذُ مَتى عَلِمَ وَيلْديف بِهٰذا؟»

«كَأَنَّهُ سَمِعَ بِهِ هٰذا الصَّباحَ.. كَمْ كُنْتِ غَبِيَّةً يا يوسْتاسْيا!»

وَلَمّا غادَرَها جَدُّها راحَتْ تَضْرِبُ في الأَرْضِ، وَعَقْلُها مَشْغولٌ بِالنَّبَإِ المُذْهِلِ. فَمَعَ أَنَّ المالَ لَمْ يَكُنْ ذا قيمَةٍ لَدَيْها إِلّا أَنَّها أَحَبَّتْ كُلَّ ما يَأْتي بِهِ المالُ.

وَلِدَهْشَتِها صادَفَتْ وَيلْديف، فَبادَرَتْهُ قائِلَةً: «أَرى مِنَ الواجِبِ تَهْنِئَتَكَ!»

قالَ: «عَلى الأَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ جُنَيْهٍ؟»

«وَهَلْ رَسَمْتَ خُطَطًا لِلْمُسْتَقْبَلِ؟»

«سَوْفَ أَسْتَغِلُّ تِسْعَةَ آلافٍ، وَبِالباقي أَنْوي السِّياحَةَ عامًا أَوْ نَحْوَهُ. سَأُمَضّي الشِّتاءَ وَالرَّبيعَ في باريس ثُمَّ أَشْخَصُ إلى إيطاليا وَاليونانِ وَمِصْرَ وَفِلَسْطينَ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ آمُلُ أَنْ أَزورَ أَمريكا وَأُسْتراليا وَالهِنْدَ وَرُبَّما أَعودُ إلى باريس مَرَّةً أُخْرى وَأَمْكُثُ هُناكَ قَدْرَ ما أَسْتَطيعُ.» كَأَنَّ قَلْبَ يوسْتاسْيا تَوَقَّفَ عِنْدَما صَكَّ اسْمُ باريس أُذُنَيْها!

سَأَلَتْهُ يوسْتاسْيا، وَهِيَ تَكْبَحُ جِماحَها: «وَهَلْ سَتَصْحَبُ توماسين مَعَكَ؟»

فَأَجابَ: «نَعَمْ، إِذا رَغِبَتْ هِيَ في ذٰلِكَ، وَإِلّا بَقِيَتْ في المَنْزِلِ.»

وَإِذْ كانا موشِكَيْنِ عَلى الافْتِراقِ لَحَظا ضَوْءًا أَمامَهُما في مَأْوى أَحَدِ الحَطّابينَ، فَذَهَبَ وَيلْديف لِيَتَطَلَّعَ الأَمْرَ؛ فَشاهَدَ الطَّبيبَ وَالقَرَوِيّينَ مُحيطينَ بِالشَّبَحِ المُسَجّى لِلسَّيِّدَةِ يوبرايت. كانَ عَلى قُرْبٍ يَسْمَحُ لَهُ بِسَماعِ تَعْليقِ الطَّبيبِ وَهُوَ يَقولُ: «يُؤْسِفُني أَنَّها لَنْ تَسْتَرِدَّ وَعْيَها سَريعًا، فَقَدْ كانَ القَيْظُ وَالإِجْهادُ فَوْقَ طاقَةِ احْتِمالِها.»



وَبَعْدَها لُمِحَ جوني نَنْساتْش يَلْحَقُ بِالقَوْمِ صارِخًا : «وَيْ ! هٰذِهِ هِيَ المَرْأَةُ الَّتي كُنْتُ أُخاطِبُها اليَوْمَ ، وَالَّتي كانَتْ تُرَدِّدُ أَنَّها أُغْلِقَ بابُ ٱبْنِها دونَها .»

عِنْدَئِذٍ كَرَّ وِيلْديف عائِدًا إلى يوسْتاسْيا وَأَفْضى إِلَيْها بِكُلِّ ما سَمِعَ .

أَمّا يوسْتاسْيا فَقَدْ عَقَّبَتْ قائِلَةً : «أَنا المَلومَةُ في ذٰلِكَ ! إِنَّ الزَّمَنَ لَيُخَبِّئُ لي الوَيْلَ . اِمْضِ ، يا وِيلْديف ، اِمْضِ !»

رَغْمَ ذٰلِكَ سَأَلَها وِيلْديف : «أَلَمْ تَسْمَحي لَها بِدُخولِ البَيْتِ ؟»

«نَعَمْ . وَهٰذا مَكْمَنُ الفاجِعَةِ !»

لَمْ تُفِقِ السَّيِّدَةُ يوبرايت من غَيْبوبَتِها إطْلاقًا ، فَقَدْ ماتَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ .



عقب هذه الأحداث المتتابعة أُصيب كليم بانهيار تامٍّ. وكان في لحظات هذيانه تلك يَنْحي على نفسه باللائمة ويحمّلها مسئوليّة تلك المأساة، ولم يعزّه عن ذلك شيء.

ومهما يكن من أمر فقد بدا كليم وكأنّ حزنه قد أذاب ما بنفسه، وعادت إليه عافيته فأنشأ يرتّب معيشته من جديد. ورحل إلى بلومز إند ليجهّز شئون أمّه.

ولم يكفّ كليم عن التفكير في الظروف التي أدّت إلى موت أمّه، وقلّب الأمر على وجوهه، ترى هل عرفت يوستاسيا أنّها جاءت؟ وهل طردت أمّه حقيقة؟

ولكي يحصل على المعلومات الصحيحة دأب على استخلاصها من فم جوني نُساتش وكريستيان كانتل، وكذلك ديغوري فِن الذي عرف شيئًا عن الحادث.

وبدأت الحقائق تتكشّف رويدًا رويدًا، فقد زارت أمّه المكان، وقرعت الباب فلم يستجب أحد. ولكي يزداد كليم يقينًا انطلق إلى بيت سوزان نُساتش لاستجواب ابنها جوني مرّة أخرى.

«أواثق، يا جوني، أنّ أمّي كانت في طريقها إلى منزلي عندما رأيتها أوّل ما رأيتها؟»

«أجل، وكانت قبلها تستريح تحت بعض الأشجار وهي تتطلّع إلى رجل أقبل نحو الدار، ثمّ دخلها.»



«كنتُ أنا ذلك الرجل، يا جوني، عندما كنت أقوم بقطع الأشجار.»

«لا، يا سيّد يوبرايت، كان رجلًا يرتدي ملابس مختلفة.»

سأله كليم كذلك، وقد برّح به الغضب بعد هذا الكشف: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

«مشت في اتّجاه منزلك وطرقت الباب. فأزاحت سيّدة ذات شعر أسود الستار، ونظرت خارج الدار ثمّ عادت أدراجها.»

راح كليم يتساءل: «بحقّ السماء ما معنى كلّ هذا؟»

وما طلع صباح اليوم التالي حتّى كان كليم يسير عبر المرج متوجّهًا إلى كوخه في ألدرورث كي يواجه زوجته بخيانتها. ودخل في الموضوع مباشرة قائلًا: «أخبريني الساعة من ذلك الشخص الذي كان معك بعد ظهر اليوم الحادي والثلاثين من شهر أغسطس، يوم أن أغلقت الباب في وجه أمّي فقتلتها؟ قولي الحقيقة وإلّا قتلتك!»

ردّت من خلال دموعها وتأثّرها: «لن أنبس ببنت شفة، وسأظلّ كذلك حتّى تزهق روحي!»

وانهارت وهي ترتجف في نشيجها، ثمّ ألقت بشال حول كتفيها، وهبّت وهي تقول: «إنّي راحلة. سأغادر هذا المكان إلى الأبد.» وغادرت الدار.



كانَ الوَقْتُ هُوَ بَواكيرَ شَهْرِ نوفَمْبر عِنْدَما قَبَعَتْ يوسْتاسْيا في دارِ جَدِّها عِدَّةَ أَسابيعَ في حُجْرَتِها القَديمَةِ مَهْدودَةً ، وَلَيْسَ وَراءَ ما بِها مِنَ الحُزْنِ غايَةٌ . بَلْ لَقَدْ راوَدَها عَقْلُها أَنْ تَضَعَ نِهايَةً لِحَياتِها . وَعِنْدَما بَلَغَها خَبَرُ ٱنْتِقالِ كليم إلى دارِ أُمِّهِ لَمْ تُبْدِ أَيَّةَ بادِرَةٍ مِنَ ٱهْتِمامٍ أَوِ ٱسْتِغْرابٍ .

وَقَدْ ظَلَّ شارلي وَفِيًّا في حُبِّهِ لِيوسْتاسْيا . وَلِكَيْ يُسَرِّيَ عَنْها ما هِيَ فيهِ مِنْ هَمٍّ وَحُزْنٍ ، عَزَمَ عَلى مُفاجَأَتِها بِإِيقادِ النّارِ كَما كانَتِ العادَةُ في الخامِسِ مِنْ شَهْرِ نوفَمْبر .

فِي مَساءِ ذٰلِكَ اليَوْمِ أَوْقَدَ شارلِي نارًا تَأَجَّجَتْ في جَدَلٍ ، لٰكِنَّ يوسْتاسْيا لَمْ تَأْتِ لِلتَّمَتُّعِ بِالمَنْظَرِ الجميلِ . وَإِذْ أَحسَّ بِخَيْبَةِ الأَمَلِ مَضى فَدَقَّ البابَ ثُمَّ نادى الكابتن قاي ، وَعِنْدَئِذٍ لَبِسَتْ يوسْتاسْيا مِعْطَفَها وَقُبَّعَتَها وَخَرَجَتْ إِلى الحَديقَةِ .

قالَ شارلِي : «لَقَدْ أَوْقَدْتُها عَمْدًا مِنْ أَجْلِ خاطِرِكِ ، يا سَيِّدَتي .»

قالَتْ : «أَشْكُرُكَ ، يا شارلِي ، ولٰكِنَّني أُريدُكَ أَنْ تُخْمِدَها !»

ثُمَّ ذَهَبَتْ يوسْتاسْيا بَعيدًا . وَبَيْنَما هِيَ واقِفَةٌ بِلا حَراكٍ ، غارِقَةٌ في ذِكْرَياتِها وَأَفْكارِها ، تَرامَى إِلى سَمْعِها صَوْتُ خَريرٍ مِنْ جَرّاءِ حَجَرٍ أُلْقِيَ في البِرْكَةِ . فَجَذَبَتْ نَفَسًا شَديدًا مِنْ أَثَرِ المُفاجَأَةِ وَهَمَسَتْ لِنَفْسِها : «إِنَّهُ وَيِلْديفْ !» وَسَرْعانَ ما كانَ بِجانِبِها ، فَصاحَتْ : «لَسْتُ أَنا الَّذي أَوْقَدَ النّارَ . لا تَقْتَرِبْ مِنّي كَثيرًا !»

قالَ : «غادَرْتِ الدّارَ ، يا يوسْتاسْيا . إِنّي قَسيمُكِ اللَّوْمَ في هٰذا كُلِّهِ !»

قالَتْ : «بَلْ أَنا وَحْدي ، لِأَنّي لَمْ أَفْتَحِ البابَ لِأُمِّهِ .»

قالَ وَيِلْديفْ : «لَقَدْ بَلَغَ هٰذا الأَمْرُ حَدًّا خَطيرًا ، وَإِنَّهُ لَقاتِلُكِ يا يوسْتاسْيا !»

اِنْفَجَرَتْ يوسْتاسْيا في انْتِحابٍ ، وَقَدِ ارْتَعَشَتْ حَتّى الأَعْماقِ مِنْ تَأْنيبِ الضَّميرِ .

قالَ وَيِلْديفْ : «أَرْجوكِ سامِحيني ، يا أَعَزَّ الأَحْبابِ ! إِنّي كُنْتُ سَبَبَ دَمارِكِ .»

«كَلّا . لَسْتَ أَنْتَ ، يا دامون . إِنَّهُ هٰذا المَكانُ الَّذي أَعيشُ فيهِ .»

«أَوَ تُريدينَ مُغادَرَةَ إِغدون إِلى الأَبَدِ ؟ إِذا كانَ الأَمْرُ كَذٰلِكَ فَقوليها صَراحَةً .»

«أَجَلْ ، يا دامون . وَيُمْكِنُكَ مُساعَدَتي في ذٰلِكَ . إِنِ اسْتَطَعْتَ حَمْلي إِلى بَدْماوث فَفي مَقْدوري قَطْعُ البَقِيَّةِ الباقِيَةِ مِنَ المَسافَةِ وَحْدي . أُريدُ الرَّحيلَ إِلى باريس .»

«أَلا أَصْحَبُكِ إِلى باريس ؟ إِنّي رَجُلٌ موسِرٌ الآنَ .»

قالَتْ يوسْتاسْيا : «سَأُفَكِّرُ في هٰذا الأَمْرِ ؛ فَإِذا قَرَّرْتُ الذَّهابَ وَقَبولَ صُحْبَتِكَ فَسَأُحْدِثُ إِشارَةً في إِحْدى اللَّيالي . في السّاعَةِ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ في نَفْسِ اللَّيْلَةِ ، تُوصِلُني إِلى بَدْماوث لِاتِّخاذِ قارِبِ الصَّباحِ . اِذْهَبِ الآنَ ، يا دامون . أَرْجوكَ !»

في تِلْكَ الأَثْناءِ هَدَأَ غَضَبُ كليمٍ في وَحْدَتِهِ وَوَدَّ لَوْ عادَتْ يوسْتاسْيا إِلَيْهِ تِلْكَ السّاعَةَ. وَبَعْدَ الارْتِقابِ أَيّامًا قَرَّ رَأْيُهُ أَنْ يُحَرِّرَ خِطابَ مُصالَحَةٍ وَيُسَلِّمَهُ في مَنْزِلِ الكابِتِنِ ڤاي في اليَوْمِ التّالي. وَكانَ هٰذا فَحْواهُ:

«عَزيزَتي يوسْتاسْيا،

إِنَّ عَلَيَّ أَنْ أُطيعَ قَلْبي دونَ أَنْ أَسْتَشيرَ عَقْلي كَثيرًا. فَهَلّا عُدْتِ إِلَيَّ، يا أَعَزَّ النّاسِ؟ فَالماضي لَنْ أُحْدِثَ لَهُ ذِكْرًا وَعَفا اللهُ عَمّا سَلَفَ. لَقَدْ كُنْتُ شَديدَ القَسْوَةِ عَلَيْكِ. عودي إِلَيَّ وَلَوْ بِلَوْمي وَتَأْنيبي. حُبُّنا يَنْبَغي أَنْ يَدومَ، وَإِنّي لَعَلى ثِقَةٍ بِأَنَّكِ مُسْتَطيعَةٌ إيضاحَ ما لَمْ يَتَّضِحْ مِنْ قَبْلُ. عودي إِذًا وَلَسَوْفَ أَسْتَقْبِلُكِ بِأَحَرِّ مَعاني التَّرْحابِ.

زَوْجُكِ عَلى الدَّوامِ،

كليم»

إِلّا أَنَّ يوسْتاسْيا، رَغْمَ كُلِّ هٰذا، لَمْ تَكُنْ تَشْعُرُ بِتَحَرُّكِ كليمٍ في سَبيلِ المُصالَحَةِ، فَلَمْ تَزَلْ يُمَزِّقُها الشَّكُّ وَالتَّرَدُّدُ. شَيْءٌ واحِدٌ كانَ يُمْكِنُ أَنْ يُغَيِّرَ رَأْيَها هُوَ ظُهورُ كليمٍ أَمامَها بِرَغْبَةٍ صادِقَةٍ مِنْهُ في المُصالَحَةِ.

وَقُبَيْلَ اللَّيْلَةِ السّادِسَةِ مِنْ شَهْرِ نوڤمْبر كانَتْ قَدْ تَجَدَّدَتْ عَزيمَةُ يوسْتاسْيا عَلى الهِجْرانِ إِلى الأَبَدِ، وَمِنْ ثَمَّ حَزَمَتْ سَلَّةً مِنَ المَلابِسِ لِهٰذا الغَرَضِ. وَما إِنْ وافَتِ السّاعَةُ الثّامِنَةُ حَتّى هُرِعَتْ إِلى رُكْنِ الحَديقَةِ وَأَشْعَلَتْ عودَ ثِقابٍ فَأَوْقَدَتْ حُزْمَةَ حَطَبٍ وَلَوَّحَتْ بِها في الهَواءِ. وَما مَضى غَيْرُ لَحَظاتٍ قَصيرَةٍ حَتّى جاءَها الرَّدُّ بِإِشارَةٍ مِنْ جانِبِ الكوايت وومان؛ فَبَعْدَ أَرْبَعِ ساعاتٍ سَيَكونُ وَيلْديف عَلى أُهْبَةِ الاسْتِعْدادِ لِحَمْلِها في العَرَبَةِ إِلى بَدْماوث، كَما تَمَّ الاتِّفاقُ.

وَبَعْدَ العَشاءِ ذَهَبَتْ يوسْتاسْيا إِلى غُرْفَةِ نَوْمِها لِإِتْمامِ تَرْتيباتِ الهَرَبِ. عِنْدَئِذٍ دَقَّ تيموثي فيرويي بابَ الدّارِ وَسَلَّمَ خادِمَ يوسْتاسْيا خِطابَ كليمٍ إِلَيْها، وَالَّذي سَلَّمَهُ بِدَوْرِهِ لِلْكابِتِنِ الَّذي ما لَبِثَ أَنْ أَسْنَدَهُ عَلى حَرْفِ المِدْفَأَةِ، حَيْثُ تَوَقَّعَ أَنْ تَراهُ يوسْتاسْيا.

لَمْ تَظْهَرْ يوسْتاسْيا لِلْعِيانِ. وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ صَعِدَ جَدُّها السُّلَّمَ وَطَفِقَ يُناديها، لٰكِنَّ غُرْفَتَها



كانَتْ خاوِيَةً، حتّى إذا ما هَبَطَ الدَّرَجَ تبيَّنَ لَهُ أَنَّ بابَ الدارِ كانَ مَفْتوحًا؛ فَأَدْرَكَ أَنَّ يوسْتاسْيا غادَرَتِ الدّارَ قَبْلَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بِرُبْعِ السّاعَةِ. فَانْزَعَجَ وَحارَ ماذا يَفْعَلُ. وَرَجَعَ إلى الرَّدْهَةِ فَرَأى أَنَّ ذٰلِكَ الخِطابَ لَمْ يَزَلْ هُناكَ لَمْ يُفَضَّ وَلَمْ يَزَلْ مُسْنَدًا حَيْثُ تَرَكَهُ عَلى حَرْفِ المِدْفَأَةِ.

وَقَفَتْ يوسْتاسْيا تَرْتَعِشُ تَحْتَ المَطَرِ في رينبارو، وَتَتَرَقَّبُ وُصولَ وِيلْديف وَساءَلَتْ نَفْسَها وَهِيَ تَنْتَحِبُ: «أَيَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أُوَلِّيَ الأَدْبارَ؟ أَيَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ؟ هٰذا الرَّجُلُ لَيْسَ مِنَ الرِّفْعَةِ لِأَكونَ مِلْكًا لَهُ. لَقَدْ خُلِقْتُ لِأَشياءَ أَعْظَمَ! إِنَّ هٰذا أَقَلُّ مِنْ نَصيبي! لَقَدْ خُدِشَتْ كَرامَتي وَرُزِئْتُ وَسُحِقْتُ بِأُمورٍ فَوْقَ طاقَةِ احْتِمالي!»

وَعِنْدَ بلومز إند انْتَظَرَ كليم في قَلَقٍ الرَّدَّ المُتَوَقَّعَ مِنْ يوسْتاسْيا، بَلْ ظُهورَها بِلَحْمِها. لٰكِنَّهُ ما إِنْ حَلَّتِ السّاعَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ حَتّى أَوى إلى فِراشِهِ فاقِدًا الأَمَلَ. وَبَعْدَ ساعَةٍ أَقْلَقَهُ طَرْقٌ عَلى البابِ. كانَ الطّارِقُ توماسين الَّتي كانَتْ مُبْتَلَّةً وَمُرَوَّعَةً!

صاحَتْ: «آهٍ يا كليم! ثَمَّةَ مُؤامَرَةٌ يُدَبِّرُها دامون وَيوسْتاسْيا! وَيَغْلِبُ على ظَنّي أَنَّ زَوْجي سَيَهْجُرُني، فَقَدْ أَخْبَرَني دامون السّاعَةَ الثّامِنَةَ أَنَّهُ ذاهِبٌ في رِحْلَةٍ طَويلَةٍ وَلَمْ يَزِدْ عَلى ذٰلِكَ، وَكانَ يَحْمِلُ مالًا كَثيرًا. رُبَّما لَمْ يُغادِرْ هٰذِهِ النّاحِيَةَ بَعْدُ. هَلْ يُمْكِنُكَ الذَّهابُ إِلَيْهِ وَمُناقَشَتُهُ؟»

وَارْتَمَتْ توماسين بِجانِبِ المِدْفَأَةِ مُنْهارَةً، كاسِفَةَ البالِ مُتَهَدِّجَةَ الأَنْفاسِ.

قالَ كليم وَهُوَ يُضيفُ مَزيدًا مِنَ الحَطَبِ إِلى النّارِ: «سَأَنْطَلِقُ الآنَ.»

وَلِدَهْشَتِهِ البالِغَةِ لَحَظَ أَنَّ اللِّفافَةَ الَّتي كانَتْ عَلى ذِراعِ توماسين لَمْ تَكُنْ غَيْرَ وَليدَتِها الَّتي حَمَلَتْها مَعَها عَبْرَ المَرْجِ وَقْتَ هُبوبِ العاصِفَةِ.

وَتَرَكَها كليم مُيَمِّمًا شَطْرَ الكوايت وومان، تَرَكَها لِتُجَفِّفَ نَفْسَها وَطِفْلَتَها أَمامَ النّارِ، بَيْدَ أَنَّ توماسين لَمْ يَقِرَّ لَها قَرارٌ؛ فَلَفَّتْ وَليدَتَها وَراحَتْ تَضْرِبُ في الأَرْضِ عَبْرَ المَرْجِ تَحْتَ المَطَرِ المِدْرارِ، وَفي لَهْفَتِها لِبُلوغِ الفُنْدُقِ في أَقْرَبِ وَقْتٍ. كانَتْ تَلْتَقِطُ أَنْفاسَها لِفَتَراتٍ قَصيرَةٍ. لٰكِنَّها ما لَبِثَتْ أَنْ أَضاعَتِ الطَّريقَ في حُلْكَةِ اللَّيْلِ الدّامِسِ. فَلَمَحَتْ أَمامَها ضَوْءًا باهِتًا. هٰذا الضَّوْءُ كانَ مُنْبَعِثًا مِنْ عَرَبَةِ ديغوري ڤِن.

وَلَمّا سَمِعَ ديغوري صَوْتًا خَرَجَ مِنْ عَرَبَتِهِ فَرَأَى توماسين. فَقالَ: «ما الَّذي حَدَثَ؟ هَلْ مَرَرْتِ بِالمَكانِ مِنْ دَقائِقَ؟ إِخالُني لَمَحْتُ شَبَحَ امْرَأَةٍ تَمُرُّ مِنْ هاهُنا!»

«كَلّا. أَنا ما جِئْتُ إِلّا السّاعَةَ. لٰكِنْ عَلَيَّ العَوْدَةُ إِلى الفُنْدُقِ الآنَ.»

«سَأَصْحَبُكِ. دَعيني أَحْمِلِ الوَليدَةَ.» وَانْطَلَقا يَخوضانِ في الوَحْلِ.

سَأَلَتْهُ توماسين: «تُرى كَمِ المَسافَةُ المُتَبَقِّيَةُ إِلى الفُنْدُقِ، يا ديغوري؟»

«حَوالَى نِصْفِ كيلومِتْرٍ.»

صاحَتْ وَقَدْ ذَهَبَ عَنْها الرَّوْعُ أَخيرًا: «أَلْمَحُ نورًا في النّافِذَةِ.»

«كَلّا. إِنَّهُ نورُ مِصْباحِ عَرَبَةٍ قُرْبَ الفُنْدُقِ.»

قالَتْ توماسين المُعَذَّبَةُ: «هَلُمَّ، أَسْرِعْ. تَوَلَّ قِبَلَ النّورِ وَلَيْسَ قِبَلَ الفُنْدُقِ!»





كانَ وَيلْديف يَنْتَظِرُ عَلى مَسافَةٍ مِنَ الفُنْدُقِ عِنْدَما لاحَ لَهُ كليم فَجْأَةً في حالَةِ هِياجٍ. وَقَبْلَ أَنْ يَنْبِسَ أَيٌّ مِنْهُما بِبِنْتِ شَفَةٍ طَرَقَ سَمْعَيْهِما صَرْخَةٌ مَذْعورَةٌ.

وَصَرَخَ كليم: «يا لَلْهَوْلِ! أَيُمْكِنُ أَنْ تَكونَ يوسْتاسْيا؟»

حَمَلَ كُلٌّ مِنَ الرَّجُلَيْنِ مِصْباحَ عَرَبَتِهِ وَأَسْرَعا إِلى السَّدِّ. أَمّا كليم فَقَدِ اعْتَلى القَنْطَرَةَ الَّتي أَشْرَفَتْ عَلى فُتْحاتِ السَّدِّ، وَحاوَلَ عَبَثًا أَنْ يَرُدَّ تَدَفُّقَ المِياهِ، أَمّا وَيلْديف الَّذي كانَ واقِفًا عَلى الضِّفَّةِ فَقَدْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَرى جَسَدًا يَدورُ كَالدُّوّامَةِ.

صَرَخَ وَيلْديف وَهُوَ يَقْفِزُ في اللُّجَّةِ: «لَهْفي عَلَيْكِ، يا يوسْتاسْيا!» أَمّا كليم فَراحَ يَخوضُ في الماءِ لِلْوُصولِ إِلى الشَّبَحَيْنِ اللَّذَيْنِ كانا في الماءِ المُهْتاجِ. في تِلْكَ اللَّحْظَةِ جَلَبَتْ صَرَخاتُهُمْ ديغوري وَتوماسين وَفِئَةً قَليلَةً مِنَ الجيرانِ. وَبَدَأَ ديغوري يَخوضُ في الماءِ حَتّى اسْتَطاعَ أَنْ يَقْبِضَ عَلى أَحَدِ الجَسَدَيْنِ وَكانَ جَسَدَ رَجُلٍ، وَأَفْلَحَ في سَحْبِهِ إِلى حافَةِ



السَّدِّ. وَلِدَهْشَةِ الجَميعِ رَأَوْا جَسَدَ رَجُلٍ آخَرَ مُتَشَبِّثٍ بِساقَيِ الشَّخْصِ الأَوَّلِ. إِنَّهُ وَيلْديف الَّذي كانَ مُمْسِكًا بِساقَيْ كليم. وَطَفِقَ بَعْضُ القَرَوِيّينَ يَبْحَثُ عَنِ الجُثَّةِ الثّالِثَةِ، وَسُرْعانَ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّها في القاعِ، وَكانَتْ جُثَّةَ يوسْتاسْيا.

وَحُمِلَ الثَّلاثَةُ إِلى الفُنْدُقِ، وَاسْتُدْعِيَ طَبيبٌ في الحالِ. وَبَعْدَ العِلاجِ ظَهَرَتْ رَعْشَةُ حَياةٍ في جَسَدِ كليم. أَمّا وَيلْديف وَيوسْتاسْيا فَقَدْ فارَقَتْهُما الحَياةُ.

وَإِذْ جَلَسَتْ توماسين بِجانِبِ النّارِ تَبْكي وَتُرْضِعُ وَليدَتَها، وَمِنْ خَلْفِها ديغوري المُخْلِصُ، أَتى شارلي غارِقًا في دُموعِهِ وَوَجْهُهُ شاحِبٌ كَوُجوهِ الأَمْواتِ.

صَعِدَ الجَميعُ إِلى أَعْلى وَكليم مُسْتَنِدٌ إِلى توماسين، فَأَلْقَوْا نَظْرَةً عَلى وَجْهِ يوسْتاسْيا. وَكانَ شَعْرُها الأَسْوَدُ البَديعُ يُحيطُ بِمُحَيّاها الحَزينِ الشّاحِبِ. أَمّا وَيلْديف فَكانَ مُسَجًّى عَلى الفِراشِ الآخَرِ عَلَيْهِ مَسْحَةُ الشَّبابِ النَّضِرِ.

تَناوَلَ النّاسُ حِكايَةَ مَوْتِ يوسْتاسْيا ووَيِلْديف ، وَظَلّوا يَلوكونَها شُهورًا عَديدَةً ، وَرَغْمَ ذٰلِكَ فَبَيْنَ تِلْكَ الثَّرْثَراتِ المُتَناثِرَةِ لَمْ يَبْدُ أَنَّ أَيًّا مِنَ الضَّحِيَّتَيْنِ قَدْ فَقَدَ كَرامَتَهُ بِمَوْتِه . فَقَدْ صَعَقَهُما القَدَرُ عَلى حينِ غِرَّةٍ وَفي بَواكيرِ حَياتِهِما بَدَلًا مِنْ أَنْ يَبْعَثَ بِخُطاهُما إلى شَيْخوخَةٍ تَعِسَةٍ .

بَرَّحَ الحُزْنُ بِتوماسين عَلى زَوْجِها الرّاحِلِ ، بَيْدَ أَنَّها شُغِلَتْ بِطِفْلَتِها ، وَٱسْتَرَدَّتْ رُوَيْدًا رُوَيْدًا سالِفَ هُدوئِها . وَمِنْ حُسْنِ حَظِّها أَنَّ وَيِلْديف قَدْ تَرَكَها في خَفْضٍ مِنَ العَيْشِ . وَلَمْ يَمْضِ طَويلُ وَقْتٍ حَتّى ٱنْتَقَلَتْ إلى دارِها القَديمَةِ في بلومز إند ، حَيْثُ ٱتَّخَذَ كليم بِضْعَ غُرَفٍ في الدَّوْرِ العُلْوِيِّ مِنْ أَجْلِ دِراسَتِهِ وَحَياتِهِ البَسيطَةِ .

بَعْدَ مُضِيِّ حَوالى عامَيْنِ فوجِئَتْ توماسين بِزائِرٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ ، وَكانَ ديغوري ڤين ، الَّذي لَمْ يَعُدْ يَحْمِلُ الآنَ العَلامَةَ الحَمْراءَ الدّالَّةَ عَلى حِرْفَتِهِ القَديمَةِ ، لٰكِنَّهُ قَدِ ٱبْيَضَّ وَجْهُهُ وَحَسُنَ هِنْدامُهُ بِفاخِرِ الثِّيابِ .

سَأَلَتْهُ توماسين ضاحِكَةً : «كَيْفَ تَأَتّى لَكَ أَنْ يَبْيَضَّ وَجْهُكَ ، أَيْ ديغوري ؟»

«صِرْتُ إلى هٰذا بِالتَّدْريجِ ، يا سَيِّدَتي .»

«تَلوحُ أَفْضَلَ مِمّا كُنْتَ مِنْ قَبْلُ . اِجْلِسْ ، وَدونَكَ فِنجانًا مِنَ الشّاي .»

«شُكْرًا ، يا سَيِّدَتي ، لٰكِنَّني لَنْ أَبْقى طَويلًا اليَوْمَ . لَعَلَّهُ قَدْ بَلَغَكِ أَنَّني أَمْتَلِكُ الآنَ مَزْرَعَةَ أَلْبانٍ في ستيكلفورد قِوامُها خَمْسونَ بَقَرَةً .»

بَعْدَ ذٰلِكَ التّاريخِ أَعْلَنَتْ توماسين لِكليم أَنَّها سَتَتَزَوَّجُ ديغوري . وَأَقْبَلَ اليَوْمُ السَّعيدُ عَلى عَجَلٍ ، بَيْدَ أَنَّ كليم ظَلَّ بِمَنْأًى عَنِ المَراسِمِ المَأْلوفَةِ ، وَقَضى ذٰلِكَ اليَوْمَ في حالٍ مِنَ الكَآبَةِ أَشَدَّ مِنْ ذي قَبْلُ ، زائِرًا لِقَبْرِ أُمِّهِ وَمِنْهُ إلى حَيْثُ رَقَدَتْ يوسْتاسْيا في فِناءِ مَقْبَرَةٍ سَحيقَةٍ . بَعْدَها قَفَلَ راجِعًا إلى دارِهِ حَيْثُ وَجَدَ العَزاءَ في بُطونِ كُتُبِه .

وَإِذْ جَلَسَ يَتَطَلَّعُ إلى كُرْسِيِّ أُمِّهِ الخالي ، طَفِقَ يَئِنُّ قائِلًا : «لَيْتَني أَصْغَيْتُ لِنُصْحِها ! كُلُّ هٰذا كانَ غَلْطَتي . أَوّاهُ يا أُمّي ! لَوْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَبْدَأَ حَياتي مِنْ جَديدٍ .»

وَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ بُرْهَةٍ حَتّى فوجِئَ كليم بِنَقْرَةٍ عَلى البابِ ، وَكانَ الطّارِقُ شارلي .



«شارلي ! يَسُرُّني أَنَّكَ جِئْتَ ، فَإِنَّ عِنْدي شَيْئًا أُريدُ أَنْ أُعْطِيَكَ إِيّاهُ .»

قالَ كليم هٰذا وَذَهَبَ إِلى مَكْتَبِهِ وَأَخْرَجَ مِنْهُ رِزْمَةً مِنَ الوَرَقِ الشَّفِّ . فَضَّها وَٱسْتَخْلَصَ مِنْها خُصْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا مِنْ شَعْرٍ فاحِمٍ غَزيرٍ . لَفَّ واحِدَةً مِنْها في وَرَقَةٍ وَأَعْطاها شارلي قائِلًا : «شارلي . كُنْتَ دائِمًا مولَعًا بِها ، وَهِيَ يُسْعِدُها أَنْ تَكونَ عِنْدَكَ هٰذِهِ الذِّكْرى المُتَواضِعَةُ .»

رَفَعَ شارلي عَقيرَتَهُ في صَوْتٍ مَخْنوقٍ : «شُكْرًا لَكَ ، يا سَيِّدُ يوبرايت . شُكْرًا لَكَ !» ثُمَّ ٱنْطَلَقَ خارِجًا وَالدُّموعُ تَنْحَدِرُ عَلى وَجْنَتَيْهِ .

في يَوْمِ الأَحَدِ التّالي لِزِفافِ توماسين إِلى ديغوري ڤين ، تَسَلَّقَ كليم قِمَّةَ رينبارو مِثْلَما كانَتْ تَفْعَلُ يوسْتاسْيا مُنْذُ سَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ خَلَتْ . كانَ الطَّقْسُ دافِئًا حَيْثُ كانَ بَعْدَ ظُهْرِ أَحَدِ أَيّامِ الصَّيْفِ ، وَقَدِ ٱجْتَمَعَ حَوْلَهُ طَوائِفُ مِنَ القَرَوِيّينَ مُصْغينَ إِلى مَوْعِظَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ البَساطَةِ وَالفَصاحَةِ ، وَقَدْ أَرْهَفوا السَّمْعَ وَٱشْرَأَبّوا بِأَعْناقِهِمْ . ذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ عَرَفوهُ وَكانوا بِقِصَّتِهِ الشَّجِيَّةِ عالِمينَ . عَلى ذٰلِكَ المِنْوالِ ما فَتِئَ يَتَنَقَّلُ مِنَ الرّيفِ إِلى القُرى الصَّغيرَةِ المُجاوِرَةِ إِلى المُدُنِ ، كَذٰلِكَ إِلى الأَسْواقِ وَشَواطِئِ البَحْرِ ، حَيْثُ كانَ النّاسُ يَحْتَشِدونَ حَوْلَهُ مُصْغينَ . لَقَدْ وَجَدَ أَخيرًا ضالَّتَهُ المَنْشودَةَ في الحَياةِ ، وَوَجَدَ مَعَها كَذٰلِكَ الرِّضا وَالقَبولَ .





توماس هاردي

كانَ لِمِنْطَقَةِ «وِسِكْس» - وهُوَ الاسْم الّذي أَطْلَقَهُ هاردي على جَنوبِ - غَرْبِ إنْكِلْترا - وَقْعٌ هامٌّ على حَياتِهِ. فَفي تِلْكَ المِنْطَقَةِ وُلِدَ وتَرَعْرَعَ. وإلى تِلْكَ المِنْطَقَةِ كانَ مآبُهُ بَعْدَ كُلِّ جَوْلَةٍ أَوْ رِحْلَةٍ مِنْ أَسْفارِهِ الكَثيرَةِ. وقَدْ أَحَبَّ «وِسِكْس» واسْتَلْهَمَ مِنْ طَبيعَةِ أَرْضِها وسُكّانِها وَحيًا طَبَعَ مُعْظَمَ قَصائِدِهِ ورِواياتِهِ.

وُلِدَ توماس هاردي في قَرْيَةِ «بروكْهامْبتون» بِمُقاطَعَةِ «دورْسِت» في الثّاني مِنْ حَزيرانَ (يونيو) عامَ ١٨٤٠. كانَ لِوالِدَيْهِ تَأْثيرٌ مُباشِرٌ على مَجْرى حَياتِهِ. فَبِوَحْيٍ مِنْ مِهْنَةِ والِدِهِ البَنّاءِ اتَّجَهَ إلى دِراسَةِ الهَنْدَسَةِ المِعْمارِيَّةِ. أَمّا والِدَتُهُ فَقَدْ غَرَسَتْ فيهِ الشَّغَفَ بِالكُتُبِ وحُبَّ المُطالَعَةِ. عَمِلَ أَوّلًا في بَلْدَةِ «دورْشِسْتر». ثُمَّ انْتَقَلَ في السَّنَةِ ١٨٦٢ إلى لندن حَيْثُ الْتَحَقَ بِمَكْتَبِ أَحَدِ المُهَنْدِسينَ. وقَدْ أَفادَ مِنْ وُجودِهِ في العاصِمَةِ فَزادَ مِنْ مُطالَعاتِهِ وشاهَدَ المَسْرَحِيّاتِ وزارَ مَعارِضَ الفُنونِ وبَدَأَ بِنَظْمِ الشِّعْرِ.

عادَ ثانِيَةً إلى «دورْسِت» حَيْثُ بَدَأَ تأْليفَ الرِّواياتِ. لَمْ يَنْشُرْ هاردي رِوايَتَهُ الأُولى «الفَقيرِ والسَّيِّدَةِ النَّبيلَةِ» [The poor Man and the Lady] . ولٰكِنَّهُ نالَ تَشْجيعَ أَصْدِقائِهِ، فَتابَعَ الكِتابَةَ وَظَهَرَتْ لَهُ بِضْعُ رِواياتٍ. حَقَّقَ هاردي أَوَّلَ نَجاحٍ شَعْبِيٍّ كَبيرٍ لَهُ، سَنَةَ ١٨٧٤، عِنْدَ نَشْرِ رِوايَتِهِ «بَعيدًا عَنْ صَخَبِ النّاسِ» [Far from the Madding Crowd]. وقَدْ تَزَوَّجَ في ذاكَ العامِ مِنْ إيما غيفورْد.

أَمْضى السَّنَواتِ العَشْرَ التّالِيَةَ في رِحْلاتٍ داخِلَ بَريطانيا وخارِجَها، ثُمَّ اسْتَقَرَّ، قُرْبَ «دورْشِسْتَر»، في مَنْزِلٍ صَمَّمَهُ بِنَفْسِهِ. وهُناكَ قامَ بِكِتابَةِ رِواياتِهِ الشَّهيرَةِ، ومِنْ بَيْنِها: «مُحافِظ كاسْتَرْبِرِدْج» [The Mayor of Casterbridge]، و«سُكّان الأَحْراج» [The Woodlanders]، و«تِسّ دوبِرْفيل» [Tess of the Dubervilles] . وهٰذِهِ الرِّوايَةُ الأَخيرَةُ أَثارَتْ ضَجَّةً كُبْرى لَدى نَشْرِها، فَقَدِ اعْتَبَرَ النُّقّادُ مَوْضوعَها فاضِحًا ومُثيرًا. عامَ ١٨٩٦ ظَهَرَتْ رِوايَتُهُ التّالِيَةُ «يَهوذا الغامِض» [Jude the Obscure]، فَقابَلَها النُّقّادُ أَيْضًا بِعاصِفَةٍ مِنَ الإِدانَةِ، فَقَرَّرَ هاردي التَّوَقُّفَ عَنْ كِتابَةِ الرِّواياتِ، وكَرَّسَ بَقِيَّةَ حَياتِهِ لِنَظْمِ الشِّعْرِ، وجاءَتْ قَصائِدُهُ تُضاهي رِواياتِهِ جَوْدَةً ورَوْعَةً. وقَدْ تَتابَعَتْ شُهْرَةُ هاردي في التَّنامي، بالرَّغْمِ مِنَ الانْتِقاداتِ العَنيفَةِ لِمَوْضوعاتِ بَعْضِ رِواياتِهِ، وحازَ العَديدَ مِنَ الأَوْسِمَةِ والجَوائِزِ.

ماتَتْ زَوْجَتُهُ سَنَةَ ١٩١٢، ثُمَّ تَزَوَّجَ ثانِيَةً سَنَةَ ١٩١٤ مِنْ مُدَبِّرَةِ مَنْزِلِهِ وسكرتيرته فلورَنْس دَغْديل. تُوُفِّيَ هاردي سَنَةَ ١٩٢٨ وهُوَ في السّابِعَةِ والثَّمانينَ.



كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليڤَر تْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْڤيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير
١٣ - حَولَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
١٤ - رِحْلَة إلى قَلْب الأرض
١٥ - كُنوز الملِك سُلَيْمان
١٦ - سايْلس مارْنَر
١٧ - شيْرلي
١٨ - رِحلات جَلِڤَر
١٩ - بعيدًا عن صَخب النّاس
٢٠ - مُغامَرات هَكلبري فين
٢١ - ديڤيد كوپرفيلد
٢٢ - بْليك هاوُس
٢٣ - بْلاك بيُوتي

كتب الفراشة

القصص العالميّة ١١. عودة المُواطِن

رِوايَة «عَوْدة المُواطِن» لِتوماس هاردي قِصَّة حُبّ مَتينَة الحَبْكَة، مُشوِّقة الأُسْلوب، تُقدِّم لَنا صُورَة عَن صِراع الإِنْسان عَلى جَبَهات ثَلاث: مَع نَفْسه – أوَّلًا – لِمُقاوَمَة حُبّ المُغامَرة والتَّسرُّع، ومَع غَيْره مِن النّاس – ثانِيًا – إِذْ تَتَضارَب المَصالِح والأَهْواء والأَساليب، ومَع البيئَة – ثالِثًا – حَيْثُ يُواجِه سِلسِلَة مِنَ الوَقائِع تُقنِعُه – في النِّهاية – بِأَنْ لا سَعادَةَ لِلفَرْد إلّا إذا كان مُنسجِمًا مَع مُحيطه.



مكتبة لبنان ناشرون

01C196811